أسرار الحج



جوادي آملي

دار الهادي

أسرار الحج

جوادي آملي

دار الهادي

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون وفاكس: ٨٣٤٢٦٥٠ - ٣١٧٤٢٥ - تلكس: ٢٢٥٩٧-MCS ٢٠٧٧٧ بلاغ -
ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان.

بِسْمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحيمِ

«وَلله على الناس حِجُّ البيتِ مَن استَطاعَ إليهِ سَبيلاً. وَمَنْ كَفَرَ فَإنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ العالَمِينَ»

(آل عمران/٩٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل العرش مطاماً للملائكة الحافين، والبيت المعمور في السماء مثالاً له للزائرين، وجعل الكعبة في الأرض مثالاً لهما للطائفين والعاكفين؛ وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين، الذين هم خير الحاج والمعتمرين.

وبعد، فيقول العبد المفتاق إلى ربه الجواد عبدالله الجوادي الطبري الآملي: هذه وجيزة حول أسرار الحج وماله من المآثر القيمة، في ضوء مقدمة وصلات وخاتمة.

أما المقدمة: ففي بيان أن العبادة، ومنها الحج، غاية الخلق لا الخالق. والسر في ذلك هو أن كل فاعل يفعل فعلاً لغرض يناله وغاية يطلبها فهو ناقص، وكل ما ليس بناقص فهو لا يفعل فعلاً

لغرض وغاية[1].

وحيث أن الخالق تعالى غني عن العالمين فليس بناقص، فلا يفعل فعلاً لغرض يتوخاه وغاية يطلبها، وإلا لزم أن يكون بذاته ناقصاً ومحتاجاً، ويصير بغيره كاملاً ومستغنياً؛ وحاشا الغني المحض عن الفاقة، وسبحان الكامل الصرف عن النقص.

ولا ميز في الغرض المنفي والغاية المسلوبة عنه تعالى، بين أن يكون هو جلب النفع إلى نفسه أو ايصال الخير إلى الغير؛ إذ لو كان ايصال الخير إلى الغير فرضاً له وغاية لذاته، يلزم أن يكون ذاته تعالى بدون ذلك الايصال ناقصاً، ومعه يصير كاملاً وهو محال. بل هو تعالى جواد محض، يهب ما ينبغي كما ينبغي، لا لعوض ولا غرض، وإن كان فعله تعالى متن الحكمة وينبوع الخير ومعدن البركة.

فمن هنا يتبين الجمع بين قوله تعالى ﴿ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (٥٦/الذاريات)، وقوله تعالى ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾ (ابراهيم ـ ٨)، لأن معنى الآية الكريمة الأولى، هو بيان غاية الخلق، أي الهدف السامي للمخلوق والكمال النهائي له، هو أن يصير عبداً له تعالى. كما قال مولى الموحدين علي بن أبي طالب (ع): «إلهي كفى بي فخراً أن أكون لك عبداً».

---

(١) الفصل الخامس في المقالة السادسة من إلهيات الشفاء.

ومعنى الآية الكريمة الثانية، هو بيان أن الله تعالى لم يكن محتاجاً إلى أن يصير معبوداً، بحيث لو لم يُعبد لبقي على نقصه وحاجته، فإذا صار معبوداً ارتفع نقصه وسُدّ حاجته. سبحان الغني المحض عن الفقر إلى شيء أصلاً، بل هو الغني الجواد عُبدَ أم لم يُعبَد.

وهكذا تبين مغزى القول في بيانه تعالى: **﴿كنت كنزاً مخفياً فأحببتُ أن أعرف، فَخَلقت الخلق لكي أعرف﴾** لأن معرفة الله تعالى كعبادته تعالى، غاية الخلق لا الخالق. إذ الهدف إنما هو للمحتاج لا للغني، والغرض إنما يتصور للناقص لا للكامل بالذات، لأن ذاته هو الهدف لجميع ما سواه.

ثم إن هناك بياناً حكيماً، في ضرورة الغاية لكل فعل، وفي تحتم الغرض لكل فيض، وفي كون كلّ فاعل إنما هو يفعل لغاية يتوخاها حتى يستكمل بها ويصير كاملاً. وإما إذا كان الكمال المحض مبدء لفيض وسبباً لأمر، كيف يُفرض له غرض زائد على ذاته، بل هو الغرض الذاتي لكل فعل وفيض، كما هو المبدء الذاتي لكل أثر وخير، حسبما أفاده القرآن الحكيم بقوله تعالى: **﴿هو الأول والآخر﴾** .

الآية تبين أنه تعالى هو الغاية بالذات فلا غاية له، كما أنه تعالى هو الفاعل بالذات لما عداه فلا فاعل له، وهو تعالى خالق كل شيء وإليه تصير الأمور **﴿كما بدءكم تعودون﴾**.

فمن ذلك يظهر سرّ قوله تعالى **﴿ولله على الناس حج البيت**

من استطاع إليه سبيلاً، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ (آل عمران ٩٧).

حيث أن الحج عبادة مفروضة من الله على الناس، وهم محتاجون إلى أن يحجوا ويعتمروا، فإن كفروا وتمردوا فإن الله غني عن العالمين فضلاً عنهم وعن عبادتهم.

فالحج إذاً كغيره من العبادات، غاية الخلق لا الخالق؛ والحاج يتزود بحجه خير الزاد، والله غني محض، لأنه نفس الغنى ومحض الكمال، فلا يتصور له غاية زائدة على ذاته، إذ لا غاية للغاية الذاتية.

وأما الصلات: ففي بيان فضائل الكعبة، وسنن الحج وأسرارها، وتأثيرها في تحرير الرقاب من الاستعباد، وعتق النفوس من الاستكبار، ووضع الآصار والاغلال من الأعناق والأيدي والأرجل، لاخراج الناس من ذل الأديان إلى عزّ الإسلام.

الصلة الأولى: حول الكعبة زادها الله شرفاً (في أن الكعبة مثال للعرش).

إن الأصول القرآنية ناهضة أولا: بأن لجميع الأشياء خزائن عند الله تبقى ولا تفنى، وإن نفدت وبادت تلك الأشياء؛ حيث قال تعالى: **﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما نُنزلُهُ إلا بقدر معلوم﴾** (سور الحجر/آية ٢١)، وقال تعالى: **﴿ما عندكم ينفد**

وما عند الله باق﴾ (سورة النحل/ آية ٩٦). فلا مجال لنفاد الخزائن التي عند الله، لأن كل ما عنده فهو مصون عن الزوال ومحفوظ عن الفناء.

وثانياً: بأن جميع تلك الأشياء الخارجية نازلة من تلك الخزائن الغيبية، لا بنحو التجافي المستلزم للنفاد والزوال، بل بنحو التجلي، كما قال علي (ع): «الحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه». ويدل على ذلك التنزل، قوله تعالى: ﴿وما نُنزّله إلا بقدر معلوم﴾، حيث ينطق بأن وجود تلك الأشياء في تلك المخازن بنحو اللف والجمع، وعند التنزل يصير بنحو النشر والقدر والهندسة.

فمن هنا يظهر معنى قوله تعالى: ﴿قد أنزلنا عليكم لباساً يُواري سوأتكم وريشاً﴾ (سورة الأعراف/آية ٢٦)، وقوله تعالى: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ (سورة الزمر/ آية ٦)، وقوله تعالى: ﴿وفي السماء رزقُكُم وما توعدون﴾ -(سورة الذاريات/آية ٢٢) ، وقوله تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ (سورة الحديد آية ٢٥). حيث أن الإنزال في هذه الموارد ونظائرها، بمعنى التنزل والتجسم لا التجافي، نظير انزال المطر من السماء المادي إلى الأرض، لأن كل قطرة إذا نزلت إلى الأرض فقد انتقلت وهجرت مكانها السمائي. فكل شيء موجود في عالم المادة له أصل محفوظ عند الله، يتنزل منه ويكون آية له ومرآة إياه، وكذا يكون مرقاةً إليه، ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾

(سورة الشورى/ آية ٥٣).

فمن ذلك ما ورد من نزول قواعد الكعبة من الجنة، وكذا نزول الحجر الأسود ونزول حَجَر المقام منها[١]. حيث إن ذلك كله يدل على أن لأجزاء البيت وأركانه أصلاً طيباً عند الله، تكون تلك الأمور متنزلة من ذلك الأصل الطيب[٢].

ويشهد له ما ورد في سرّ تربيع الكعبة وبنائها على أربعة أركان، من أن ذلك كان بحذاء البيت المعمور، وكذا العرش، حيث أن له أركاناً وأضلاعاً أربعة، فلما سُئل الإمام الصادق (ع) المعصوم، عن سرّ تربيع العرش، أجاب (ع): بأن الكلمات التي بني عليها الإسلام أربع، وهي التسبيحات الأربع ـ سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر[٣] ـ.

حيث أن هذا السؤال والجواب، يدل على أن الكعبة قد تنزلت من البيت المعمور المتنزل من العرش، على المعنى المتقدم من التنزل المنزه عن التجافي. وعلى أن سرّ التربيع في هذه الأنظمة الثلاثة، أعني الطبيعة والمثال والعقل، هو تربيع الكلمات الدالة على التنزيه والتحميد والتهليل والتكبير.

فمن هنا يلوح معنى ما ورد من أن الكعبة من موضعها إلى

---

(١) الميزان ج ١ ص ٢٩٤.
(٢) الوسائل ج ٩ ص ٣٨٦ إلى ٣٨٨.
(٣) البحار ج ٩٩ ص ٥٧.

عنان السماء قبلة (كتاب الوافي، باب وجوب الاستقبال) لأن ظاهره، وإن كان هو وجوب الاستقبال إلى هذا البُعد العمودي تشريعاً، ولكن سرّه يدل على الارتباط الوجودي بين عالم الطبيعة والمثال والعقل؛ والصراط الذي يمكن سلوكه هو التحقق في المعارف المستفادة من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير - تدبر - نظير ما ورد عن أمير المؤمنين في الجواب عن، كم بين السماء والأرض، قال (ع): «مدّ البصر ودعوة المظلوم».

الصلة الثانية: في أن الكعبة أسست على التوحيد المحض.

إن هندسة الكعبة كانت بهداية الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وقال عز من قائل **﴿وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تُشرك بي شيئاً﴾** (الحج/آية ٢٦)، يعني أن تبوئة البيت وتعيين مكانه وهندسة تأسيسه، إنما هو على التوحيد الصرف الذي لا يشوبه أي شرك أصلاً، لا الشرك الجلي كالوثنية، ولا الخفي كالرياء، لأن النكرة التالية للنفي تفيد سر آية النفي إلى كل ما يصدق عليه الشرك، حيث قال تعالى. **﴿.. لا تشرك بي شيئاً﴾** .

وهذا التوحيد المحض، الذي أسس عليه الكعبة، لا يتحقق إلا في الأوحدي من المؤمنين، إذ الأكثري منهم ليس مصوناً عن لوث الشرك الجلي، كالتواضع للغني لغناه، والتذلل للطاغوت

لطغيانه. أو الشرك الخفي كترك الدنيا للدنيا والزهد فيها للجاه والمقام، ولذا قال تعالى: **﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾** (يوسف/آية ١٠٦)، أي أكثر المؤمنين مشركون بالمعنى المتقدم وهؤلاء الأكثرون لا يرثون الأرض، بل يرثها العباد الصالحون الذين يمكنهم الله دينهم الذي ارتضى لهم ويؤمنون به ولا يشركون به شيئاً.

وهذا التوحيد المحض قد تجلى في كلمات رسول الله (ص)، الذي أوتي جوامع الكلم، حيث قال(ص): لا إله إلا الله وحده وحده وحده. ولعله ناظر إلى التوحيد في مراتبه الثلاث، من التوحيد الذاتي والصفاتي والافعالي، فمعه لا مجال للشرك أصلاً، إذ لا يخلو شيء من المراحل الوجودية عن التوحيد حتى يكون ذلك الخلاء بنفسه شركاً، أو يملأ به الشرك بناءً على كونه أمراً وجودياً.

وحيث أن التوحيد شجرة طوبى ومن ثمارها التقوى، يكون مسجد قبا المؤسس على التقوى، من فروع ذلك الأصل ومن ثمار ذاك البذر. فالكعبة المؤسسة على التوحيد، أصل لجميع ما يبنى على التقوى؛ كما يكون هدم الكعبة المؤسس على الشرك أصل لجميع ما يبني على شفا جرف هارٍ ينهار في نار جهنم.

نتحصل، إن هندسة الكعبة على التوحيد البحت الذي لا يجتمع مع أي شرك أصلاً، وهي بهذه الهندسة الإلهية صارت موضوعة ومتعلقة لغير واحدٍ من الأحكام ومنها الحج، وهي بهذه

الخصيصة تكون مثالاً للعرش الذي لا يحوم حوله إلا الملائكة الذين هم عباد الرحمن، لا يعصون الله ما أمرهم وهم بأمره يعملون، ولا يسبقونه بالقول ويفعلون ما يؤمرون، ولا يفترون من تسبيحه ولا يسأمون من تقديسه، ولا يستحسرون من عبادته، ولا يؤثرون التقصير على الجدّ في أمره، ولا يغفلون عن الوله إليه[١].

الصلة الثالثة: في أن قواعد الكعبة بُنيَت ورُفعت على الخلوص الصرف.

إن عمران الكعبة وبناءها ورفع قواعدها، كان بيد إبراهيم خليل الله (ع) وإسماعيل ذبيح الله، قال تعالى: ﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، ربّنا تقبل منا**﴾. (البقرة/ آية ١٢٧). يعني أن بناء الكعبة ورفع قواعدها كان عبادةً خالصة صادرة من ذينك النبيين، بحيث لا يريدان من أحدٍ جزاءاً ولا شكوراً؛ بل إنما يرفعان قواعدها لوجه الله، ولم يكن ذلك منهم بدعاء لفظي فحسب، بل كان كامناً في القلب وظاهراً في القالب ومكنوناً في المُهجة وبارزاً في اللهجة. لأن من جاء ربه بقلب سليم لا يمس كرامة قلبه طائف من غير الله؛ ومن قال ﴿**يا أبتِ افعل ما تُؤمر سَتجَدني من الصابرين**﴾، لا يمس طهارة ضميره

---

(١) الصحيفة السجادية دعاء ٣.

ما ينافي الخلوص. فهذان النبيان (ع)، بتمام التوحيد والخلوص، دَعَوا ربهما وقالا «ربنا تقبل منا»؛ وحيث إن الله تعالى، وصفهما بأنهما من العباد المخلصين الذين لا تتطرق الشيطنة والوسوسة نحوهم، فهما من المتقين الذين لا يتقبل الله بقبول حسنٍ إلا منهم.

نتحصل إن الكعبة مرفوعة القواعد على الخلوص، ومقبولة لله تعالى بالتقوى؛ وحيث أن هندستها التوحيد، وعمرانها الخلوص والتقوى، تشرفت بإضافتها إلى الله تعالى، وصارت بيت الله الذي له ما في السموات والأرض، ورفيعةً بإذنه تعالى، ويذكر فيها اسمه تعالى أناء الليل وأطراف النهار، وصارت شجرة طوبى، وثمارها بيوت أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه، من المساجد والمشاهد ونحوها المراكز الدينية والعبادية.

الصلة الرابعة: في أن الكعبة طاهرة لا يمسها إلا المطهرون.

قد أُمِر النبيان، إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، بتطهير الكعبة عن كل قذارةٍ ولوث وتزكيها عن كل رجسٍ ورجز. قال تعالى: **﴿وعَهِدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طَهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾** (البقرة/آية ١٢٥). ومعه لا مجال لقذارة الوثن، ولا للوث الوثني، ولا موقع لرجس الصَنَم ولا لرجز الصنمي، إذ العابد والمعبود كلاهما في النار: **﴿إنكم**

وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ (الأنبياء/ آية ٩٨).

وهذا التطهير عهد إلهي لا ينال الظالم كما لا يناله الظالمُ، إنما يناله الخليل والذبيح والكليم والمسيح والحبيب وسائر الأنبياء والمرسلين عليهم أفضل صلوات المُصلين.

وهذا البيت الطاهر، بما فيه الحجر الأسود، يمين الله «الذي كلتا يديه يمين»[1] فلا تمسهما الأيدي الدَنِسة، وكما أن القرآن الكريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون، أي لا يمس ظاهر القرآن وخطوطه المكتوبة إلا المطهرون من الحدث، ولا يمسن باطنه ومعارفه العليا إلا المطهرون من الذنب، وهم الأئمة من أهل بيت الوحي، حيث قال تعالى: **﴿إنما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويُطهركم تطهيرا﴾**. كذلك الكعبة الطاهرة لا يطوف حولها ولا يستقبلها في شؤونه الحيوية إلا الطاهرون؛ إذ الطيب للطيب كما أن الخبيث للخبيث.

وكما أن القرآن الكريم مرآة نقية يرى الناظرُ صورته الجميلة أو القبيحة فيها، ولذلك يهدي به الله، من اتبع رضوانه، سبل السلام، ويضل به الفاسقين، كذلك الكعبة مرآة صافية يرى الناظر منظره الجميل أو القبيح فيها، يهدي بها الله من يشاء ويضل بها من يشاء، وهم الذين نزل فيهم: **﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية﴾** (سورة الأنفال/ ٣٥)، وهؤلاء لا يُوفقون للطواف

---

(١) الفتوحات ج ١ص ٦٦٦.

حولها والصلاة نحوها، وما إلى ذلك من الشؤون العبادية.

الصلة الخامسة: في أن الكعبة أقدم بيتٍ وُضع للناس.

إن الأرض برحبتها مسجد وطهور، وكان الإنسان من اقدام الدهور يعبد الله سبحانه في أي قطر من أقطار الأرض، إلا أن أوّل موضع اختص للتعبد الشعبي والتخضع الجمعي هو البيت الذي قد أُسس على التوحيد بهندسة الوحي وعمارة النبوة وسدانة الإمامة وتطهير الخُلة، حيث قال تعالى: **﴿إن أول بيتٍ وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقامُ ابراهيم﴾** (آل عمران/ آية ٩٦ ـ ٩٧).

وبهذه السابقة المقدسة والسالفة المباركة قدمت على البيت المقدس وصارت قبلة للعالمين، وبذلك أجيب اعتراض اليهود على الإسلام عند نزول قوله تعالى: **﴿فولّ وجهك شطر المسجد الحرام..﴾** (سورة البقرة/ آيات ١٤٤ ـ ١٥٠)، حيث تمسكوا بقداسة البيت المقدس وقدمته، فأجيبوا بأن الكعبة المطهرة أوّل بيتٍ وضع للناس وأقدمه، ولعله لهذا سميت بالبيت العتيق. إذ العتيق يطلق على القديم النفيس، فلا يطلق على ما لا قدمة له، وكذا لا يطلق على القديم الذي لأنفاسه ولا قداسة له، بل أنه يطلق على خصوص القديم الذي مرت عليه الدهور ولم يُبله ولم يُدنسه شيء ولم تُنجسه الجاهلية بأنجاسها ولم تُلبسه المدلهمات من ثيابها، إلا أن مجرد القدمة التاريخية قد أورثت النفاسة،

وصرف السبق الزماني قد أوجب القداسة على ما يراه المتوسمون؛ حاشا المعارف الإلٰهية أن يعطى القداسة شيئاً مرّ عليه الدهور فحسب، وأن يهب النفاسة شيئاً بقي طول الدهر فقط، بل كما أن مدار الكرامة في النظام الإنساني الإلٰهي هو التقوى لا غير، كذلك محور القداسة في النظام الخارجي من الأزمنة والأمكنة والبيوت ونحوها، هو تجلي أمر إلٰهي كنزول الوحي فيه وانتشاره منه. وهذا هو الموجب لقداسة الكعبة وهي بانضمامها إلى القدمة التاريخية يوجب أن يصير بيتاً عتيقاً. وله إيضاً معنى آخر سيأتي في موطنه.

الصلة السادسة: في أن الكعبة مدار العتق ومحور الحرية.

كما أن الكعبة لقدمتها ونفاستها صارت عتيقاً، كذلك لا نعتاقها عن سلطة أي مالك وتحررها عن قهر أي سلطان صارت عتيقاً، حيث إنها لم يملكها أحد[1] ولم يسيطر عليها أحد سيطرة المالك على المملوك؛ فعليه يكون قدمتها التاريخية بنفاستها، وهكذا تحررها عن سلطة أي مالك موجباً لكونها عتيقاً بكلا الوجهين.

تبين من ذلك أنه، لا يطوف حول هذا البيت العتيق

---

(١) وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة ج ٩ ص ٣٤٧.

ولا يستقبل نحوه إلا العتقاء من سلطة الطغاة المردة، ولا يولي وجهه شطره إلا الأحرار من سيطرة الأهواء المردية؛ وحيث أن عبد الرق أذل من عبد الشهوة، لا يصير الإنسان حراً ما لم يدع هذه اللماظة، ولا يكون حراً ما لم يضع عنه اصره والأغلال التي كانت عليه، وما لم يصير حراً لا يصلح لأن يطوف حول البيت الحر ويستقبل نحو الكعبة العتيق، لأن الطيب لا يناله إلاالطيب، كما أن الخبيث لا يحن إلا نحو الخبيث، ومن ذلك يلوح مغزى قوله تعالى ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ (سورة الحج/آية ٢٩)، وقوله تعالى: ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ (سورة الحج/آية ٣٣) فمن تحرر من شُح نفسه وأفلح وصار حراً من عبودية غير الله، يصير صالحاً للطواف حول البيت العتيق والصلاة شطره؛ وكذا الطواف حوله، ينهى عن الرقية والانظلام كما تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر. فالطائف حول البيت الحر لا يستعبد أحداً كما لا يصير عبداً لأحد إلا الله: «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً». وهكذا التضحية، الهدي، وابلاغه البيت العتيق، يدرس الحرية ويورث التحرر عن كل رقية عدا رقية الله تعالى، التي هي الفضيلة الوحيد للإنسان؛ فعليه أن يعبد الله مخلصاً له الدين الواصب.

الصلة السابعة: في أن الكعبة مثابة للناس وأمن لهم.

قد جعل الله الكعبة مرجعاً ومثابةً للناس يرجعون ويثوبون

إليها فيما يعرض لهم من الأمور الهامة، وأمناً لهم من أي خطر كان يصيب الذين يعيشون خارج الحرم، قال تعالى: ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً﴾ (سورة البقرة/آية ١٢٥) وقال تعالى: ﴿أو لم يروا إنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم؛ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ (سورة العنكبوت/آية٦٧) ونطاق الكريمة الثانية هو كون الحرم أمناً للناس وصوناً لهم عن الاختطاف والاستلاب والقتل والنهب والسبي وما إلى ذلك مما كان يفعله الطغاة الذين لا شعار لهم إلا شعار «قد أفلح اليوم من استعلى»، ولا يهمهم أمر أصلاً؛ بل قد أهمتهم أنفسهم ويظنون بالله ظن الجاهلية ويأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام، ولكن الأصل في ذلك كله هو الكعبة التي جعلها الله مثابة للناس وأمناً لهم، ثم بتشرفها جعل البلد أميناً والحرم مأموناً والمكة مصونة. وقد روي[١] عن النبي والأئمة أنه حرم الحرم لحرمة المسجد.

وروي عن مولانا جعفر بن محمد الصادق (ع) أنه قال: من دخل الحرم من الناس مستجيراً به فهو آمن، ومن دخل البيت مستجيراً به من المذنبين فهو آمن من سخط الله، ومن دخل الحرم من الوحش والسباع والطير فهو آمن من أن يُهاج أو يؤذى حتى يخرج من الحرم[٢]. وكان هذا التأمين الإلهي اجابة لباني الكعبة إبراهيم الخليل (ع) حيث دعا ربه وقال ﴿رب اجعل هذا بلداً

(١) وسائل الشيعة ج ٩ ص ٣٣٦.
(٢) وسائل الشيعة ج ٩ ص ٣٣٩.

آمناً﴾ (سورة البقرة، آية ١٢٦)، وقال أيضاً: **﴿ربِ اجعل هذا البلد آمناً﴾** (سورة ابراهيم، آية ٣٥)، ولعل سر التفاوت في التعبير هو بلحاظ كون ذينك الدعائين في زمانين مختلفين، أحدهما قبل تحقق البلد وبناء مكة، وثانيهما بعد بناء مكة وتحقق البلد.

وكيف كان فقد جعل الله البيت حراماً ووصفه به، حيث قال في كتابه البيت الحرام، وقال: ومن دخله كان آمناً. ومن ذاك الأصل ما تنعم به قريش حيث أنه تعالى أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف.

الصلة الثامنة: في أن الكعبة البيت الحرام قيام للناس.

إن المراد من القيام المطلوب في قوله تعالى **﴿إنما أعظكم بواحدةٍ أن تقوموا لله﴾** (سورة سبأ، آية ٤٦) هو المقاومة والاستقامة لا الانتصاب البدني وهو واضح، ويقابله القعود بمعنى العجز والاستكانة والانظلام، ولذا جعل الجهاد والقعود متقابلين حيث قال تعالى **﴿فضل الله المجاهدين على القاعدين درجةً﴾**، فالمجاهد الذي يجاهد أهواءه كما يجاهد أعداءه فهو قائم، والذي يتصالح مع هواه كما يصالح عدوه فهو قاعد، والدين الإلهي يتلخص في قوله تعالى **﴿إنما أعظكم بواحدة﴾**، وهو يفيد الحصر أي لا موعظة إلا بخصلة واحدة وهو القيام لله، أي المقاومة لإحياء أمر الله والاستقامة في امتثال حكمه، وهذا هوالمعبر عنه

بالجهاد. فالدين الإلهي متبلور في المجاهدة لا غير، والجهاد مع الأهواء والأعداء قيام، واعطاء الأعداء باليد والتسليم لهم أو الفرار منهم قعود وعجز. ولعل التعبير عن المجاهدة بالقيام، لأنه من بين سائر الحالات والشؤون أقوى الحالة وأشدها دفاعاً واهيائها دعاً ودفعاً أو تحاملاً وتهاجماً.

فالدين قيام وجهاد لا يحوم حوله القعود والعجز، كما قال تعالى: **﴿ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾** (سورة الحديد، آية ٢٥)، حيث يدل على أن الهدف السامي للنبوة العامة السارية في سير الأنبياء الذين يسيرون عليها ويدعون إليها، هو قيام الناس بالقسط (بالكسر) وتحررهم عن القسط (بالفتح)، وأجلى مراتب القيام بالقسط هو التوحيد، لأن الشرك ظلم عظيم لا عدل فيه أصلاً، ثم سائر مراتبه في الأخلاق والأعمال، فإذا تبين أن الموعظة الإلهية تتلخص في القيام لله، وإن غاية البعثة والإرسال وانزال الوحي هو قيام الناس بالقسط، يلزم الغور الصادق في معتمد هذا القيام وفي عمد هذه المقاومة وعماد هذه الاستقامة.

والذي ورثناه من سلالة ابراهيم الباني لهذا البيت الحرام، هو أن عامل قيام الناس ومقاومتهم تجاه الطغاة اللئام هو قيام الكعبة وحياتها ودوام أمرها، حيث قال مولانا جعفر بن محمد الصادق (ع): لا يزال الدين قائماً ما قامت

الكعبة[١]، فحياة الكعبة هو حياة الدين، وبحياة الدين يحيى الناس، وبخراب الكعبة وانهدامها وهجرها يموت الدين، وبموته يموت الناس؛ والأصل في ذلك كله هو قوله تعالى: ﴿**جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس**﴾ (سورة المائدة، آية ٩٧)، حيث يدل على أن عمران الكعبة، بالطواف حولها والصلاة شطرها والحج بمناسكها، وجعلها قبلة يستقبل إليها في الشؤون العبادية ونحوها، هو العامل الهام لقيام الناس. كما يدل على أن هدم الكعبة وهجرها بترك الطواف حولها والصلاة إليها وسائر ما يعتبر فيه الاستقبال هو الموجب لقعود الناس وعجزهم عن دفع الأهواء والأعداء: ﴿**ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة**﴾ (سورة الأنفال، آية ٤٢).

نتحصل أن الكعبة للدين الإلهي بمنزلة عظم الظهر وفقراته للإنسان، فإذا قامت وقويت وسلمت فقد أمكن القيام والمشي والمقاومة والسرعة إلى المغفرة والسبقة إلى الخير وما إلى ذلك مما يتوقف على القيام المعتمد على عظم الظهر وسلامة فقراته. وإذا عجزت وضعفت ووهنت فقد تعذر القيام وامتنع الاستقامة واستحال السرعة والسبقة ونحو ذلك مما يتوقف على القيام، وذلك لكسر فقار الظهر وانثلام عماده وصيرورته فقيراً، أي المنكسر فقار ظهره بعد أن أمكن أن يصير غنياً عن الغير وقائماً بنفسه اعتماداً على من هو عماد من لا عماد له ومحترزاً بحرز من

---

(١) وسائل الشيعة ج ٨ ص ١٤.

هو حرز لمن لا حرز له، وهو الله القائم على كل نفس بما كسبت، الذي هو بكل شيء محيط وحفيظ.

وعند هجر بيت الله ينقطع الربط، وبانفصامه لا يمكن القيام بالقسط والمقاومة مع القسط (بالفتح)، وبذا يحرم ويمنع خير الدنيا والآخرة، لأن الكعبة عامل قيام الناس لدينهم ومعاشهم حسب ما أفاده مولانا الصادق (ع)[1].

فلذا قال رسول الله (ص): من أراد دنيا وآخرة فليؤم هذا البيت[2] أي من أراد أن ينال في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة حيث يقول «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة» وهكذا يناجي ربه ويقول «ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً» فليقصد هذا البيت وليجعله إماماً يأتم به وقدوة يقتدي بها ومقصداً يطلبه، لأن في ضوئها خير الدنيا والآخرة، لأن في قيامها قيام الدين وبقيام الدين ينتفع في الدارين.

ومن أهم مظاهر الائتمام بالكعبة هوالحج بمناسكه والطواف حولها بأشواطها والهدي البالغ إياها ونحو ذلك.

ومما تقدم تبين سر ما ورد عن النبي (ص): من أيسر ما يعطى من ينظر إلى الكعبة أن يعطيه الله بكل نظرة حسنة ويمحي

---

(١) وسائل الشيعة ج ٨ ص ٤١.
(٢) وسائل الشيعة ج ٨ ص ٤٠.

عنه سيئة ويرفع له درجة[1] .

وعن مولانا الصادق (ع): النظر إلى الكعبة عبادة[2] . وهكذا ما ورد عنه (ع) من التبرك بثياب الكعبة بجعلها للمصاحف[3] وغير ذلك. وإن الدخول فيها (أي في الكعبة)، دخول في رحمة الله والخروج منها خروج من الذنوب معصوم فيما بقى من عمره مغفور له ما سلف من ذنوبه. وإن الداخل فيها يدخل والله راض عنه ويخرج عطلاً من الذنوب. وهكذا ما ورد عن مولانا علي بن أبي طالب (ع). الله الله في بيت ربكم لا تخلوه ما بقيتُم فإنه إن ترك لم تناظروا[4] . لأن ترك بيت الله وهجره بمنزلة سقوط العماد الذي يسقط معه المتكىء به فينكب عن الصراط ﴿إنهم عن الصراط لناكبون﴾، ويهوى ويسقط (لا تطفوا فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى). وما ورد عن مولانا محمد بن علي الباقر (ع): لا ينبغي لأحد أن يرفع بناء فوق الكعبة[5] ، فكما أن الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه، كذلك الإسلام الممثل وهو الكعبة، فكما أن الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه، كذلك الإسلام الممثل هو الكعبة لا يُعلى عليه بناء، وحيث أنها قيام للناس جعلت في وسط الأرض ليكون الفرض لأهل

---

(١) وسائل الشيعة ج ٩ ص ٣٥٩ و ٣٦٤ و ص ٣٦٥.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) وسائل الشيعة ج ٨ ص ١٥ .
(٥) وسائل الشيعة ج ٩ ص ٣٤٣.

الشرق والغرب سواء[1]، وحيث أنه لا شيء أحب عندالله من الإسلام وهو متمثل في الكعبة فلا بقعة في الأرض أحب إلى الله منها. ولذا ورد عن مولانا الصادق (ع): إن الله اختار من كل شيء شيئاً واختار من الأرض موضع الكعبة[2].

والسر في ذلك كله هو أن الكعبة مثال لنعرش الذي منه تدبير الأشياء كلها ومؤسسة على التوحيد المحض ومبنية ومرفوعة على الخلوص وطاهرة عن لوث الشرك، لا يطوف حولها إلا الطاهرون. وأقدم بيت وضع للناس، وميزان الحرية، ومثابة للناس وأمن لهم، وقيام للناس بالقسط والعدل.

ولذلك يقوم الدين ما قامت الكعبة، ولا جله لم تختص بقومٍ دون قوم، وليس قبيلة أولى بها من قبيلة، بل ولذلك لم يحكَم في شيء من الفضائل المارة بأنها أي الكعبة مثابة للمؤمنين أو قيام لهم، ولم يخاطب المؤمنون بتعظيمها ونحو ذلك، بل الخطاب أو محور الكلام في ذلك كله هو الناس بالعموم والاطلاق من دون أي وصف وقيد كما تقدم مبسوطاً.

ومن أهم مظاهر تلك السعة والدعوة البالغة والنداء العالمي هو الحج، حيث قال تعالى ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾ ولم يقل يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الحج

---

(١) وسائل الشيعة ج ٨ ص ٨.

(٢) وسائل الشيعة ج ٩ ص ٣٤٨.

أوأقيموا الحج ونحو ذلك مما ورد في الصوم والصلاة، بل اللسان العالمي قد نادى بقوله «ولله على الناس...» كما أن الإعلام العالمي منذ زمن بناء البيت كان متجهاً نحو الناس سواسية، حيث قال: ﴿وأذن في الناس بالحج﴾ على ما ستقف عليه.

نتحصل أن الكعبة بنيان إلهي للناس، الأسود والأبيض والعاكف والباد والراجل والراكب من دون خصوصية لأحد أو لقوم أو لإقليم، فارتقب لما يُتلى عليك من آيات الحج والعمرة في الصلاة القادمة. ومن هنا تبين ضرورة قيام الشعب طُراً في تطهير الكعبة المقدسة عن تولية الطغاة المردة، ونجاتها من أيدي الأشرار المستولين على البيت الحرام والمنتفعين به نفعاً تجارياً، يبيعون الدين بالدنيا وهؤلاء هم السراق كما ورد عن مولانا الصادق (ع): إما أن قائمنا لو قد قام لقد أخذهم فقطع أيديهم وطاف بهم وقال هؤلاء سراق الله[1].

وأنت أيها المسلم إذا سمعت (بأن ولاية الكعبة كانت في خزاعة إلى زمن حليل الخزاعي، فجعلها حليل من بعده لابنته، وكانت تحت قصي بن كلاب، وجعل فتح الباب وغلقها لرجل من خزاعة يمسى أبا غبشان، فباعه أبو غبشان من قصى بن كلاب ببعير وزُق خمر، وفي ذلك يضرب المثل السائر ـ اخسر من صفقة أبي غبشان ـ).[2] ومُت على ذلك ألماً وأسفاً لما كنت ملوماً،

---

(١) وسائل الشيعة ج ٩ ص ٣٥٥.

(٢) الميزان ج ٣ ص ٣٩٩.

وهنالك يتبلور قوله تعالى: ﴿**وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي**﴾ وهذه هي، ملة إبراهيم، التي لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه، وحيث أن رسول الله والذين آمنوا معه أولى بإبراهيم الذي طهر ببيت الله عن أي رجس ورجز، فعلى الأمة الإسلامية اليوم أن يطهروا بيته تعالى عن كل لوث وقذارة شرقية كانت أو غربية.

فكما أن العقل ما يعبد به الرحمن ويكتسب به الجنان، فكل ما لا يكتسب به الجنان ولا يعبد به الرحمن، بل يكتسب به الدنيا الجائفة ويعبد به الطاغوت، فهو ليس بعقل بل سفاهة. ولقد أجاد سيدنا الأستاذ العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (قدس سره) في تفسيره القيم، عند بيان قوله تعالى: ﴿**ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سَفَه نفسه**﴾ حيث قال (ره)... ومن هذه الآية يستفاد معنى ما ورد في الحديث ـ إن العقل ما عُبدَ به الرحمن[(١)] انتهى.

وأنت إذا شاهدت اليوم ما ابتليت به الكعبة المعظمة من استيلاء الطغاة عليها، لاستبان لك معنى قول مولى الموحدين علي بن أبي طالب (ع) في كتابه إلى مالك.. إن هذا الدين كان أسيراً في أيدي الأشرار، يعمل فيه بالهوى ويطلب به الدنيا (نهج البلاغة).

---

(١) الميزان ج ١ ص ٣٠٣.

فعلى الشعوب الإسلامية أن يحققوا ما حققه إبراهيم (ع) ويبطلوا ماأبطله، وذلك إنما يتجلى بالحج والعمرة على ما يرضاه الله ورسوله، وعلى ما حج ولبى خاتم النبيين حيث قال: خذوا عني مناسككم. وهو (ص) أخذ مناسكه من جبرائيل حسبما تقدم.

الصلة التاسعة: في أن حرمة الكعبة وعزتها لحرمة الحق وعزته.

قد تبين في ثنايا الصلات المارة، إن للكعبة حرمة تختص بها، وعزة لا توجد في غيرها من البقاع والأبنية، وليكن يلزم الفحص عن منشأ حرمتها وعزتها هل هي بما أنها كعبة وبيت خاص في مكانٍ مخصوص حرامٌ وعزيز، أو ذلك بما أنها مثال للحق وتجلي لظهوره ووعاء للوعي ومهبط للوحي، وغير ذلك مما به يحيى الحق ويموت الباطل، والحاصل هل حرمتها لذاتها أو لظهور الحق منها.

وليعلم أن مما قام البرهان العقلي عليه هو لزوم انتهاء ما بالعرض إلى ما بالذات دفعاً للتسلسل وصوناً عن الدور. ومن ذلك ما يشاهد في القرآن الكريم أنه وإن ينطق بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ولكن يهتف بأن عزة غير الله (تعالى) تنتهي إلى عزته. حيث يقول: «العزة لله» تعالى، وهكذا في القوة حيث ينطق بقوله تعالى: ﴿خذوا ما أتيناكم بقوة﴾، وبقوله ﴿يا يحيى

خذ الكتاب بقوة﴾ وبقوله ﴿واعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ وبقوله ﴿إني عليه لقوي أمين﴾ وما إلى ذلك. ولكنه ينادي بأعلى صوته﴿القوة لله جميعاً﴾ (سورة البقرة، آية ١٦٥) وهكذا في الشفاعة ونحوها من الأمور الوجودية، حيث إنها برمتها تنتهي إلى الحق الذي له الأسماء الحسنى بالذات.

ومما يتفرع على هذا الأصل الذي توافق فيه البرهان والقرآن، هو لزوم انتهاء ما للكعبة من الحرمة والعزة إلى حرمة الحق وعزته، بحيث لو دارالأمر بين هدم الكعبة وتخريبها وهدم الحق، يلزم هدم الكعبة تضحية للحق وفداء له، للزوم تضحية ما بالعرض وقاية لما بالذات.

ولنشر إلى نبذٍ في ذلك فنقول: إن للحرم أحكاماً تحكي عزته وتدل على فضله، من عدم جواز الدخول فيه بلا احرام، ومن عدم جواز دخول غير الموحد فيه، ومن عدم جواز أخذ اللقطة منه على رأي، ومن عدم جواز الصيد فيه، ومن عدم جواز اجراء الحدود فيه إلا من لم يراع حرمته وارتكب الفحشاء فيه، ومن عدم جواز قطع شجرة وقلع نبتة، وغير ذلك من الآثار الخاصة الدالة على شرفه ونظير ما للمسجد الحرام الذي سواء العاكف فيه والباد، ولكن ذلك كله لحرمة الكعبة وعزتها. ويشهد له ما ورد عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب (ع) أنه سُئل عن الوقوف بالجبل لِمَ لم يكن في الحَرم؟ فقال: لأن، الكعبة بيته والحرم بابه، فلما قصدوه وافدين وَقَفهم بالباب يتضرعون. قيل

له: فالمشعر الحرام لم صار في الحرم؟ قال: لأنه لما أذن لهم بالدخول وقفهم بالحجاب الثاني، فلما طال تضرعهم بها أذن لهم بتقريب قربانهم، فلما قضوا نفثهم تطهروا بها من الذنوب التي كانت حجاباً بينهم وبينه، أذن لهم بالزيارة على الطهارة. قيل: فلم حرم الصيام أيام التشريق؟ قال: لأن القوم زوار الله فهم في ضيافته، ولا يحمل بمضيف أن يصوم أضيافه. قيل: فالتعلق بأستار الكعبة لأي معنى هو؟ قال: هو مثل رجل له عند آخر جناية وذنب، فهو يتعلق بثوبه يتضرع إليه ويخضع له إن يتجافى له عن ذنبه(١).

فالحرم وكذا مكة والبلد الأمين، وإن كان له حرمة لا توجد في غيره من الأمكنة وهكذا للشهر الحرام والهدي والقلائد حرمة خاصة (سورة المائدة آية ٢)، إلا أن ذلك كله لحرمة الكعبة البيت الحرام، نظير ما يقال في أن الحرم قبلة لمن في خارجه، والمسجد الحرام قبلة لمن في الحرم، والكعبة قبلة لمن في المسجد الحرام، حيث أنه ليس المراد عند التحقيق إن القبلة أمور متعددة وكلها قبلة بالذات، بل المراد هو أن الكعبة وحدها قبلة ولا غير، لا الحرم قبلة ولا المسجد الحرام قبلة لأحد أصلاً. وكذا الجهة والسَمت ليس قبلة لأحد أبداً، بل القبلة الوحيدة للأحياء والأموات هي الكعبة لا غير. إلا أن صدق الاستقبال

---

(١) وسائل الشيعة ج ٩ ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

يختلف باختلاف الموارد، فالاستقبال مختلف حسب اختلاف الموارد، لا أن القبلة متعددة، وإن كان الحق هو أن البعد الخاص والحيز المخصوص الذي شغلته الكعبة، هو القبلة من تخوم الأرض إلى عنان السماء، إلا أن الجرم الخاص والبناء المخصوص قبلة بذاته حتى يلزم فقد القبلة عند هدم الكعبة، بالسيل أو الزلزلة أو غير ذلك. وكيف كان فحرمة البلدة، التي حرمها الله الذي له كل شيء، بحرمة الكعبة، إلا أن حرمة الكعبة وعزتها لا لأنها أحجار خاصة بل لأنها قيام الناس بالقسط، الذي هو الهدف السامي لبعثة الأنبياء، ولأنها قبلة للعباد ومطاف للحجاج، وتكون مداراً لبقاء الدين الإلهي ما بقيت، (لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة). فمن أرادها بسوء وشاء أن يزيل الدين بهدم الكعبة ويميت العبادة بتخريبها، ويمحو الطواف والزيارة بقلعها، ويمحق القيام بالقسط بازالتها، وبالجملة فمن يرد فيها بإلحاد بظلم يذقه الله بعذاب أليم لا يبقي ولا يذر. **﴿الم ترى كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول﴾**.

ولم يكن ذلك نادرة اتفاقية، أو صدفة تاريخية، أو بارقة خاطفة، تظهر طول الدهر مرة وتنمحي أخرى، بل هي سنة إلهية لا تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً، حسب ما أسسه القرآن الكريم على النهج القاطع العام والحكم الإلهي الدائم أنه **﴿من يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾**. وهذا كالتعهد الإلهي في صيانة القرآن الكريم عن التحريف وقال **﴿إنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل**

من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد﴾ (سورة فصلت، آية ٤١، ٤٢) وبين سر تحفظه عن تطرق الباطل، وصيانته عن النسخ والمسخ والتحريف والمحو، بأنه تعالى قد تكفل لحفظه حيث قال: **﴿انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون﴾** (سورة الحجر، آية ٩).

فعلى هذا الأصل الذي أصله القرآن الكريم، يكون حرمة الكعبة زادها الله شرفاً لحرمة الحق الذي لا يزهق، ولحياة الدين الذي لا يموت، ولدوام الوحي الذي لا يُنسى. عهداً من الله فمن أراد الكعبة بسوء، وكان في أمنيته محو الحق، يعذبه الله بعذاب بئيس لا اختلاف فيه ولا تخلف عنه.

وأما من تحصن بالكعبة والتجأ إليها ولاذ بها وتمسك بأستارها، ولكنه لم ينصر الحق ولم يخذل الباطل، ولا يغيث مستغيث الحق، ولا يُلبي منادي الحرية، ولا يجيب هُتاف الاستقامة، ولا يسمع دعاء داعي القسط، وليس له أذن واعية تعي الحق الصراح، ولا يد باسطة تبطش الباطل، ولا رجل ثابتة تتدُفي الأرض، ولا رأس يعير الله جمجمته، وبالجملة لا يعرف إمام زمانه وتكون حياته كموته جاهلية، لأن الموت على وزن الحياة (كما تعيشون تموتون وكما تموتون تبعثون)، فمن كانت موتته ميتةً جاهلية تكشف أن حياته كانت جاهلية، فلا لياذ لمثله ولا أمان له أصلاً، بل يسلط الله عليه من لا يرحمه وإن كان بهدم الكعبة وتخريبها. كما ابتلى ابن الزبير الذي لم يعرف إمام زمانه

الحسين بن علي عليه السلام وابنه علي بن الحسين (ع)، ولم ينصره على الحق الذي قام به ولم يخذل الباطل الذي ركزه بين اثنتين، بين السلة والذلة، ولم يسمع هتافه الملكوتي (هيهات منا الذلة)، ولم يلب نداءه الإلٰهي بأنه «على الإسلام السلام إذ بليت الأمة براع مثل يزيد»، ولم يجب دعوته الربانية بأن «من كان باذلاً فينا مهجته، وموطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا» وهكذا لم يعن سيد الساجدين حيث يقول «أنا ابن مكة ومنى، أنا ابن زمزم وصفا»، ثم التجأ إلى الكعبة وتعلق بأستارها، فلا يعينه الله بالغيب بل يمهل الظالم أن يهدم الكعبة ويسيطر عليه ويصلبه، **﴿كذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾** (سورة الأنعام، الآية ١٢٩)، لأن المقصود هناك لم يكن هو هدم الكعبة بما إنها قبلة للمسلمين ومطاف لهم ومهبط للوحي ومعدن للوعي، بل القصد هناك إلى السيطرة على ابن الزبير المتحصن بها واللاجىء إليها. ومن تلك الحادثة يعرف قدر الإمام وحرمة الولاية وعزة الخلافة الإلهية، كما أن بالتحليل العقلي يعرف قدر الحق وبهائه وجماله وجلاله وكبريائه ومشيئته المستولية على كل شيء، وسلطانه الذي ملأ كل شيء فانتهت تلك الحرمات، التي كانت للحرم والبلد الأمين، إلى الكعبة ومن الكعبة إلا الإمام الذي يتولاه الله الذي هو ولي الصالحين، ثم منه إلى الحق الولي الذي يخضع له كل شيء، فلئن أمهل الله الظالم حتى هدم الكعبة فليس ذلك نقضاً لقوله تعالى: **﴿ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾** فتدبر حتى تجد الميز بين أبرهة وبين ابن الزبير والحجاج.

إذ ذاك الغاشم أراد الكعبة بسوء هدماً للقبلة والمطاف، إذ كانت حينذاك قبلة للحنفاء ومطافاً لهم كما لغيرهم، وهذا الظالم أي الحجاج المسلط على ظالم آخر مثله لم يرد الكعبة بسوء بما أنها قبلة ومطاف، ولم يشاء أن يمحق الإسلام والدين الحنيف، وإن لم يكن له دين وكان ممن لا يخاف المعاد، لم يكن قصده حينذاك إلا السيطرة على الظالم الذي لم يعرف إمام زمانه، القائم بالحق والداعي إلى القسط ، المنادي بالحرية الهاتف بالحكومة الإسلامية، القائل قوله السديد: «لا أعطيكم بيدي اعطاء الذليل ولا أفر فرار العبيد» الباذل مُهجته في الله ليستنقذ عباده من الجهالة وحيرة الضلالة، المعتصم بحبل الله المتين الذي لا انفصام له والمنقطع عن غيره، قائلاً بمقالة العتيق «لو لم يكن لي في الدنيا ملجأ ولا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية» وذلك القائل هو سيدنا ومولانا سيد الشهداء الحسين بن علي عليهما السلام.

نتحصل إن الحرمة لله تعالى بالذات ولغيره بالعرض، وإن العزة للحق الذي من صارعه صرعه بالذات ولغيره المتحقق به بالعرض، وإن القوة لذي القوة المتين بالذات ولغيره بالعرض، وإن القدرة للقدير المحض بالذات ولغيره المقتدر به بالعرض، فحان أن يحترم المسلمون بحرمة الله، ويعتزوا بعزة الحق، ويتقوا بقوته ويقتدروا بقدرته. وبالجملة فليتخلقوا بأخلاقه، حتى لا يظلموا ولا يُظلموا ويكونوا أنصار الله، كما قال عيسى للحواريين «من أنصاري إلى الله» ويأخذوا ما أتاهم الله ورسوله

بقوة القلوب وقوة الأبدان، كما أخذ يحيى الزاهد كتاب الله بقوة واستشهد في سبيله.

ومن أهم مجالي هذا الأمر ومعالي هذه النهضة العالمية هو الحج، الذي ندب الناس إليه من أقطار العالم، وهو فرار وهجرة إلى الله، كما تقف عليه.

الصلة العاشرة: في أن الحج من أهم مظاهر الإسلام.

إن للإسلام قواعد ومباني يبتني عليها ويتكىء بها وينهدم دونها، ولا يبقى له بدونها إلا الاسم العاري من المسمّى. ومن تلك المباني الحج، حيث يقول مولانا محمد بن علي الباقر (ع): «بني الإسلام على خمس، الصلاة والصوم والزكاة والحج والولاية»[1]، فمن ترك الحج متعمداً فقد هدم ركناً من أركان دينه الإلهي فينهدم معه الإسلام الكامل، ولذا قال تعالى في من تركه عامداً... ﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ حيث عبر عن تركه العمدي بالكفر، فتارك الحج عمداً كافر عملاً وإن لم يكن كافراً إيماناً واعتقاداً. وحيث أن الحج من مباني الإسلام، فجميع ما ورد في شأنه لا بد وأن يتبلور في الحج ويكون الحج ممثلاً إياه ومجلي لظهوره.

ومن أعلى أوصاف الإسلام وأهمها أمران: أحدهما الكلية

---

(١) جامع أحاديث الشيعة ج ١ ص ١٢٧.

وثانيهما الدوام. يعني إن الإسلام دين إلهي كلي يسع جميع أفراد الإنسان من الأسود والأبيض والأحمر وغيرهم إذ الناس فيه سواسية كأسنان المشط، وكذا القبائل والشعوب فيه شرع سواء بحيث لا يشذ من ذلك أحد ولا يغيب منه قوم ولا يغرب منه شعب. وهكذا يسع عمود الزمان غابرة وقادمة إلى يوم القيامة، فهو كلي جامع للأفراد والشعوب بأسرهم، ودائم باق في امتداد الزمان إلى انقضائه، بطي ما هو عامله وقبض ما هو موضوعه أي السماء والأرض، حيث يقول تعالى: ﴿**يوم نطوي السماء كطى السجل للكتب**﴾ ويقول تعالى: ﴿**والسماوات مطويات بيمينه والأرض قبضته يوم القيامة**﴾. فلا يبليه الدهر ولا تدرسه الليالي والأيام، بل هو كل يوم غض وطري لا ميز فيه بين السابق من الزمان واللاحق منه، لأنه أمر إلٰهي مسيطر على الزمان ومهيمن على الحركة وفائق على المادة فيكون مصوناً عن الزوال، بل هو باق ما بقي الدهر كما كان موجوداً فيما تقدم من الدهور الغابرة والأيام الخالية، منذ كان على الأرض إنسان إذ لا بد لكل إنسان من دين إلٰهي ولا دين إلٰهي إلا الإسلام، حيث يقول الله تعالى: ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ (سورة آل عمران، آية ١٩) فالذي يهمنا الآن هو بيان هذين الأصلين أي كلية الإسلام ودوامه أولاً، وبيان كون الحج، من حيث أنه من مباني الإسلام الهامة، صالح لتجلي ذينك الأصلين فيه، بل هو من أهم مظاهر ذلك، ثانياً.

أما الأول:

فالقرآن ينادي بأن الدين عند الله هوالإسلام، وإن غيره من

الأديان منحولة مردودة ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ (آل عمران، آية ٨٥)، وأنه مطابق للفطرة الإلٰهية ﴿التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾ (الروم، آية ٣٠) وكذا يهتف، بأن الله تعالى ﴿نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ (سورة الفرقان، آية ١)، وبأنه ﴿ذكر للعالمين﴾ (سورة القلم، آية ٦٨)، ويصرح بأنه لا هادي إلا الله، ﴿وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾ (سورة الفرقان، آية ٣١)، ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ (سورة الأنعام، آية ٧١)، بل القرآن في بادىء أمره قد أعلن، في عتائق سورة، بهذين الأصلين أي الكلية والدوام حيث يقول: ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ (سورة التكوير، آية ٢٧)، حيث يدل على إن ما جاء به النبي (ص) لا شأن له إلا ذكراً وهدى للعالمين.

والبرهان على ما نطق به القرآن، هو أن الموجود المعلول كما يحتاج في أصل وجوده إلى علته التامة التي يجب بها ويمتنع دونها، كذلك في بقائه ودوامه يفتقر إليها، يبقى ببقائها ويدوم بدوامها. فإذا كانت العلة التامة باقية بحالها ومصونة عن التحويل والتبديل ومحفوظة عن التغير والزوال يكون المعلول باقياً كذلك، إلا أن يتحول شأن من شؤون تلك العلة التامة مما يرجع إلى العلة الباقية أو الفاعلة، بحيث لم يبق نصاب العلية التامة على حالها، فسوف يتطرق التغير إلى المعلول ويتحول من حال إلى حال آخر،

مما تقتضيه العلة التامة الأخرى على ما في موطنه.

وفي ضوء هذا الأصلي الحكمي، يتبين ضرورة بقاء الإسلام ما بقي على الأرض إنسان، وذلك لأن الإنسان موجود حي متفكر ومختار، ولا بد له من أن يتكامل كغيره من الموجودات الطبيعية التي لا بد لها أن تتحول وتتكامل لاحتياجها في التحقق والبقاء إلى الكمال، وإلا فينعدم؛ ولا كمال إلا ما يعطيه الكمال المحض، وهو الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فالمكمل هو رب العالمين ولا غير، لأن التكميل والتربيب نوع خلقة، حيث أنه إيجاد الربط الخاص بين شيئين أو مستلزم للخلقة إذا الخالق يقدر ويعلم أن يربّ ويكمل مخلوقه لا غيره. وهداية الموجود الحي المتفكر المختار، وتربيته وتكميله لا يكون إلا بهدايته إلى العلم والعمل الصالح، أي العقيدة والعمل الصالح، وهذا هو الدين، فالإنسان محتاج إلى دين يبينه الله ويهديه إليه، وإن ابتغى ديناً من عنده، أو من عند أي إنسان آخر فلن يقبل منه، أي لا يتكامل به بل ينكب عن الصراط السوي ويهوي إلى مكان سحيق.

وهذا الدين الإلٰهي المعبر عنه بالإسلام، موجود ممكن، فله علة تامة يجب بها ويمتنع دونها، وعلّته التامة مؤلفة من فطرة خاصة فطر الناس عليها تكون هي العلة القابلة، ومن هداية إلٰهية تكون هي العلة الفاعلة بل الفاعل هو الله الذي كفى به هادياً

ونصيراً. كما أن القابل هو الإنسان بماله من فطرة مخصوصة مفطور عليها، فإذا تحققت هذه العلة التامة المؤلفة من الفطرة القابلة والربوبية الفاعلة، يجب تحقق المعلول بها، فما دامت تلك العلة التامة باقية يجب بقاؤه بها أيضاً.

وحيث أن الإنسان نوع تام لا ميز بين أصنافه وأفراده إلا بعوارض خارجية، لا مساس لها في التقويم، ولا احتياج للإنسان إليها في التقوم، ولا دخل لها في أصل الهداية وضرورتها، وإن كان لها مساس في فروعها وآدابها وسُننها المتشعبة من ذاك الأصل الثابت. فهواي الإنسان، الذي له نوعية تامة منحفظ بحاله لا يمسه التغير ولا يطرأ عليه التحول النوعي بحيث يصير غير الإنسان من الأنواع التامة الموجودة في عرضه، وأن يتكامل في سيره الجوهري إلى نوع آخر فوقه أو دونه بمعنى أنه إنسان صار راقياً أو هاوياً[1] مع صدق الإنسانية عليه بعدُ، والحاصل إن اختلاف الأعرض والعوارض لا يوجب انثلام وحدته النوعية، ولا يكثر وحدته الفطرية ما دام هو إنسان. فالانسان، بماله فطرة خاصة فطَرَه الله عليها، إنسان طول الدهر ولا تبديل له، كما بينه خالقه الذي أعلم به من نفسه فضلاً عن غيره حيث قال... ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ (سورة الروم، ٣٠).

---

(١) الصحيفة السجادية دعاء (١).

فتبين، إن العلة القابلة باقية ما بقي على الأرض إنسان، كما كان كذلك أيضاً فيما مضى من الدهر، حيث يقول تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً﴾ (سورة الشورى، آية ١٣). وأما العلة الفاعلة فهو الله، الذي لا يمس كرامته التغير أصلاً، لأن ذاته عين الحياة التي لا موت فيها، والنور الذي لا ظلام فيه، والعلم الذي لا جهل فيه، والقدرة التي لا عجز لها؛ لأنه الحي الذي لا يموت، ولأنه نور السموات والأرض فلا انمحاء له، ولأنه لا يغرب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في المساء، فلا يخفى عليه خافية ولا يضلّ ولا ينسىٰ، وما كان ربك نسياً؛ ولأنه بكل شيء قدير، فلا يعجزه شيء أصلاً ولا يمسه في خلق شيء عيّ ولا لُغُوب أبداً. فهو العالم بمصالح الإنسان ومفاسده، وهو القادر على تعليمه إياه وهدايته إلى رُقيّه، وتحذيره عن هوية وبيان درجاته واعلام دركاته، أعاذنا الله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

والحاصل إن الله تعالى لا يسنح له حال دون حال، ولا يحجبه شيء عن شيء. فلا الصغر يمنعه عن الإحاطة العلمية به، ولا البُعد يحجبه عن الشهود، ولا الحجاب يمنعه عن الحضور ولا الظلمة تصده وتحجبه عن الظهور، بل هو تعالى، عالم بالصغير كالكبير، وشاهد للبعيد كالقريب، وحاضر في المحجوب كالمشهود، وظاهر في الظلمة كالنور حيث يقول عزّ من قائل ﴿. . . يا بُنيَّ إنها إن تك مثقالَ حبةٍ من خردلٍ فتكن في

صخرةٍ أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله، إن الله لطيف خبير﴾ (سورة لقمان، آية ١٦). يعني أن صغر الخردلة وحجاب الصخرة وبُعد السموات وظلمة الأرض، لا يمنع اللطيف الخبير عن الشهود التام، لأنه لطيف وكل لطيفٍ خبيرٍ، وأنه خبير وكل خبير لطيف، لأن كل لطيف ومجرد فهو عالم، وكل عالم فهو لطيف ومجرد، حسبما بينته الحكمة الإلٰهية في موطنها.

والسر في ذلك كله أنه تعالى، هو الأول قبل كل شيء، فلا يسبقه شيء أصلاً حتى يكون السبق موجباً لغيبه السابق عن المسبوق. وهو الآخر بعد كل شيء، فلا يلحقه شيء أصلاً حتى يكون اللحوق مانعاً عن شهود اللاحق. وهو الظاهر فلا ظهور لغيره إلا به، فلا يظهر عليه شيء أبداً حتى يكون ظهوره الفائق قاهراً على ظهوره تعالى فيكون حجاباً نورياً له تعالىٰ عن الحضور. وهو الباطن فلا بطون لغيره بحيث يكون خافياً له تعالىٰ حتى لا يكتنهه، بل هو مع كل شيء، وداخل في الأشياء لا بالممازجة، وخارج عنها لا بالمزايلة، وهو الذي في السماء إلٰه وفي الأرض إلٰه، ولذا يعلم عجيج الوحوش في الفلوات، واختلاف التينان في البحار الغامرات ومعاصي العباد في الخلوات.

فتبين بذلك أنه يمتنع فرض الجهل أو السهو في حقه تعالى، بحيث لم يكن عالماً في هداية الإنسان وتبين أحكامه في إمر ما ثم صار عالماً به حتى يكون هو الموجب لتغير الدين الإلٰهي

وهكذا في السهو والتذكر، وبذلك لا مجال لتوهم التغيير في الدين الوحيد، أي الإسلام، من ناحية القابل أو الفاعل أصلاً، ويشهد له قوله تعالىٰ: ﴿**شرعَ لكم من الدين ما وصىٰ به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، كبُر على المشركين ما تدعوهم إليه**﴾ (الشورىٰ، ١٣). حيث يدل على أن الدين المشروع للأنبياء العظام واحد لا اختلاف فيه ولا تخلف، وإن الأمم بأسرهم مأمورون بإقامة ذلك الدين الوحيد، ومنهيون عن التفرق والاختلاف، إذ الأنبياء اخوة أمهاتهم شتى ودينهم واحد. وكل لاحق منهم مصدق لسابقه، حتى انتهى الأمر إلى أفضلهم وخاتمهم محمد (ص)، الذي كان مصدقاً لما بين يديه ومهيمناً، أي مشرفاً ومسيطراً على ما تقدمه.

وأما اختلاف الشرائع والمناسك والمناهج، الذي قال تعالى فيه: ﴿**ولكل جعلنا شرعة ومنهاجاً**﴾ فماله ومرجعه إلى التخصيص لا النسخ. يعني أن الشرائط الخاصة التي تعتري المجتمع الإنساني تستدعي حكماً فرعياً وقانوناً جزئياً، يختص بتلك الشرائط التي ينقضي أمده بانقضائها. وهذا ليس من باب النسخ أصلاً بحيث يدل على ظهور فساد ما كان سابقاً، بل جميع ما ورد من الاختلافات الفرعية في الشرائع، فإنما يكون من باب التخصيص الزماني لا النسخ بمعنى ظهور نقص ما تقدم أو عيبه أو فساده ونحو ذلك، لأنه تعالى حق ولا يقول إلا الحق حيث قال: ﴿**والله يقول الحق وهو يهدي السبيل**﴾ (الأحزاب ـ ٤ ـ). إلى هنا

نجزالكلام في الأمر الأول الباحث عن الأصلين، وهما كلية الإسلام ودوامه.

وأما الأمر الثاني: الباحث عن كون الحج من حيث أنه من المباني الهامة للإسلام، صالح لتبلور ذينك الأصلين فيه، فبيانه فيما يلي من الجهات.

الجهة الأولىٰ: في أن الحج توحيد مُمثل.

إن العبادة، أية عبادة كانت، يُعتبر فيها الخلوص **﴿إلا لله الدين الخالص﴾** (الزمر ـ ٣ ـ). إلا أن تجلي ذلك الخلوص في بعضها أظهر الشرك في بعضها أقوى وأجلىٰ، ومن ذلك الحج. حيث أن التوحيد قد تمثل به وصار هو بأسره من البدو إلى الختم مثالاً للتوحيد وطرداً للشرك. وقد جعل ترك الحج كفراً حيث قال تعالى: **﴿ولله علىٰ الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾** (آل عمران ـ٩٧ ـ). حيث يشعر بأن الحج نفسه، إيمان وتوحيد وأن تركه كفر، أي كفر عملي.

وعن مولانا الصادق (ع) في دعاء سفر الحج بعد كلمات الفرج.. بسم الله دَخلتُ، بسم الله خرجتُ وفي سبيل الله، إلى أن قال.. فإنما أنا عبدك وبك ولك[1]. والخبير المتضلع بلسان

---

(١) وسائل الشيعة ج ٨ ص ٢٧٩.

الدعاء يعرف الميز بين قوله: «فإنما أنا عبدك وبك ولك» وبين غيره من الأدعية والأوراد، إذ المهم هنا هو ذات الله تعالىٰ ولقائه لا اسم من أسمائه الحُسنىٰ.

فالحج هو سير إلى الله وسلوك إلى لقائه، وتعال إلى قرب من هو دان في علوه وعال في دنوه، وتكامل إلى جوار من هو أقرب إلينا من حبل الوريد ولا يتقرب العبد من مولاهُ إلا بالتوحيد الواصب الخالص وطرد الشرك الجلي والخفي.

وعنهُ(ع)، حج موسىٰ بن عمران ومعه سبعون نبياً من بني إسرائيل.. يُلبون وتجيبهم الجبال، ويقول: لبيك عبدك ابن عبدك. وعنه (ع) في التلبية أن يقول: ـ لبيك اللهم لبيك ـ لبيك لا شريك لك لبيك ـ إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك ـ لبيك ذا المعارج لبيك ـ لبيك داعيا إلى دار السلام لبيك ـ لبيك غفار الذنوب لبيك ـ لبيك أهل التلبية لبيك ـ لبيك ذا الجلال والإكرام لبيك ـ لبيك ـ لبيك تبدىء والمعاد إليك لبيك ـ لبيك تستغني ويفتقر إليك لبيك ـ لبيك مرهوباً ومرغوباً إليك لبيك ـ لبيك إلٰه الحق لبيك ـ لبيك ذا النعماء والفضل الحسن الجميل لبيك ـ لبيك كشاف الكرب العظام لبيك ـ لبيك عبدك وابن عبديك ـ لبيك يا كريم لبيك ـ.. إلىٰ أن قال (ع): تقول ذلك في دبر كل صلاة مكتوبة ونافلة، وحين ينهض بعيرك، وإذا علوت شرفاً أو هبطت وادياً، أو لقيت راكباً أو استيقظت من منامك وبالأسحار، وأكثر ما استطعت وأظهرتها.. واعلم أنه لا بد من

التلبيات الأربع التي كن في أول الكلام، وهي الفريضة وهي التوحيد وبها لبىٰ المُرسلون. وأكثر من ذي المعارج، فإن رسول الله (ص) كان يكثر منها، وأول من لبى إبراهيم (ع)[1] إلخ.

وعن مولانا أبي جعفر (ع) سُئل لم سميت التلبية تلبية، قال (ع): إجابة أجاب موسىٰ ربه[2]. وعن مولانا الصادق (ع) في أشعار البدنة، الذي هو بمنزلة التلبية في بعض أقسام الحج، أنه قال (ع). . . ثم قل بسم الله اللهم منك ولك، اللهم تقبل مني[3]، إلخ، حيث أنه ناظر إلى ما تقدم من أن ما يرومه الحج هو لقاء الله وطرد غيره، أي غيرٍ كان. وفي دعاء الإحرام. . اللهم إني أسألك أن تجعلني ممن استجاب لك وآمن بوعدك واتبع أمرك، فإني عبدك وفي قبضتك، لا أوقىٰ إلا ما وقيت، ولا أخذ إلا ما أعطيت[4]. وحيث أن التلبية إجابة لله خالصة تخسفُ بالأخابث، وتطرد كل شيطان ماردٍ وخبيث، كما قال الصادق (ع). . هيهنا يخسف بالأخابث[5] كما خسف بقارون وكنوزه. وحيث أن الحج توحيد صراح لا شرك فيه، بل يطرد فيه كل ما كان أو يكون صنماً أو وثناً، يظهر سر استحباب دخول

---

(١) وسائل الشيعة ج ص ٥٣ إلى ٥٥.
(٢) وسائل الشيعة ج ٩ ص ٤٨.
(٣) وسائل الشيعة ج ٨ ص ١٩٩.
(٤) وسائل الشيعة ج ٩ ص ٢٣.
(٥) وسائل الشيعة ج ٩ ص ٤٩.

المسجد الحرام من باب بني شيبة، وهو أنه لما علا علي (ع) ظهر رسول الله (ص) ورمى بـ (هُبل) من ظهر الكعبة، دُفن عند باب بني شيبة، فصار الدخول إلى المسجد من ذاك الباب سنة كما بينه مولانا الصادق (ع)[1]، وهذا أي جعل هُبل تحت الأقدام والمشي عليه، مثال عال وتمثل عالٍ لجعل الشرك نسياً منسياً، وأماتته ميتة سوء. حيث أن الحق إذا تجلىٰ لا يُبقي معه مجال للباطل السابق أو اللاحق: **﴿قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾** (سورة سبأ، ٤٩)، يعني أن الحق لا يأتلف مع الباطل، فلا موقع له سواء كان عوداً للباطل السالف أو بدواً للباطل السانح، فلا اعادة للباطل ولا ابتداء له مع الحق أصلاً. وظهور التوحيد وتجليه البالغ في الإحرام، وهو التجرد عن غير واحدٍ مما هو زينة الحياة الدنيا، لائح لا سترة فيه. وتمثل الحشر والمعاد، الذي هو العود إلى المبدء، بالإحرام، بين الإخفاء فيه. وسيظهر بعض معالي التوحيد عند بيان سائر ما للحج من المناسك والسنن فارتقب.

والحاصل أن الحج توحيد ممُثل، والتوحيد هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لها. فعليه يكون الحج من أهم مظاهر الإسلام، ومُجلي للأصلين المتقدمين، أي الكلية والدوام، ولذا تداولته الأمم والأقوام، ولم تطاوله الأعوام والأيام طول الدهر. ومما يرشدك إلى أن الحج توحيد مُمثل، هو أن من أركانه

---

(١) وسائل الشيعة ج ٩ ص ٣٢٣.

الهامة هو الطواف، وهو عبادة خاصة، يتجلى فيها قوله تعالى: **﴿أينما تولوا فثم وجه الله﴾** بخلاف الصلاة التي يتحتم فيها قوله تعالى: **﴿فأينما كُنتم فولوا وجوهكم شطر المسجد الحرام﴾**.

وبيان ذلك، هو أن المُعتبر في الصلاة المكتوبة استقبال الكعبة والتوجه إليها دون غيرها من الجهات. وأما المعتبر في الحج هو السير حول الكعبة والطواف على محورها في أية جهة كانت من الجهات الأربع وإلى أية جهة منها. فالحاج يرى ـ أينما تولوا فثم وجه الله ـ والمُصلي يرى ـ ولوا وجوهكم شطر المسجد الحرام ـ وكم بينهما من الميز.

وكذا من الواجبات الهامة في الحج، هو السعي بين الصفا والمروة، وهو هرولة خاصة من الله وإلى الله، وفرار منه إليه، وهجرة منه إليه، ولياذ منه إليه، وعوذ به منه. كما عن مولانا أبي جعفر محمد بن علي (ع) في تطبيق قوله تعالى: **﴿ففروا إلى الله إني لكُم منه نذير مبين﴾**، قال (ع): حجوا إلى الله عزّ وجلّ[1] وهذا هوالتوحيد القراح الذي لا يصحبه شيء عدا من «هو الأول والآخر» ـ تدبر ـ قول النبي (ص): حيث قال بعد حمل جهازه على راحلته ـ هذه حجة لا رياء فيها ولا سُمعة. ثم قال (ص): من تجهز وفي جهازه علم حرام لم يقبل الله منه الحج[2]. وتأمل في قوله (ع): «إن الحجر الأسود يمين الله في الأرض للميثاق،

---

(١) وسائل الشيعة ج ٨ ص ٥.
(٢) وسائل الشيعة ج ٨ ص ١٠٣.

حتى يتجه كون الحج مثالاً للتوحيد»[١] .

الجهة الثانية: في أن الحج وحي مُمثل.

قد لاح لك أن الحج توحيد ممثل، بحيث لو تدلى التوحيد وتجلى في مزاياه، وتنزل في درجاته، لصار حجاً. ولو تعالى الحج وصعد إليه تعالى وترقى في معارجه، لبلغ ذا العرش أو صار توحيداً. أي عقيدة لا يشوبها شيء، ويقيناً لا يعتريه ريب كما قال الصادق (ع).. حتى يلصق بالعرش ما بينه وبين الله حجاب[٢] .

والكلام الآن، هو أن الحج بأسره وحي مُمثل، وأن مناسكه مما تجلت بالوحي، وأن رسول الله (ص) رأها من جبرائيل، وهو، أي الملك الأمين الطائف حول العرش أرى إبراهيم (ع) مناسكه، وأن تلك الأعمال الخاصة لم تكن مفروضة على الناس بمجرد التعليم القولي نظير، قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين أمنوا كُتب عليكم الصيام**﴾ بل تحققت خارجاً بالتمثل وتنزلت عيناً كذلك.

والشاهد على ذلك قوله تعالى: ﴿**وأرنا مناسكنا**﴾ (سورة

---

(١) الجامع المتبلور في قوله تعالى.. ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً﴾. (آل عمران ـ ٦٤ ـ).

(٢) وسائل الشيعة ج ٩ ص ٤٢٢.

البقرة، ١٢٨)، حيث أن هذه الارائة ليست بمعنى التعليم المفهومي الحصولي حتى يدركه الذهن تصوراً تصديقاً، بل بمعنى الاشهاد والارائة الخارجية كما في قوله تعالى: **﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾** (سورة الأنعام، آية ٧٥).

ويؤيده قول مولانا الصادق (ع): أمر الله عزّ وجل إبراهيم (ع) أن يحج ويحج بإسماعيل معه ويسكنه الحرم، فحجا.. وما معهما إلا جبرائيل، فلما بلغا الحرم قال له جبرائيل: يا إبراهيم، انزلا فاغتسلا قبل أن تدخلا الحرم. فنزلا فاغتسلا، وأراهما كيف يتهيئان للإحرام ففعلا، ثم آمرهما فاهلا بالحج، وأمرهما بالتلبيات الأربع، التي لبى بها المرسلون، ثم سار بهما إلى الصفا ونزلا، وقام جبرائيل بينهما واستقبل البيت فكبر الله وكبرا، وحمد الله وحمدا، ومجد الله ومجدا وأثنى عليه وفعلا مثل ذلك. وتقدم جبرائيل وتقدما يُثنيان على الله عزّ وجل ويمجداه حتى انتهى بهما إلى موضع الحجر، فاستلم جبرائيل وأمرهما أن يستلما، وطاف بهما اسبوعاً ثم قام بهما في موضع مقام إبراهيم (ع)، فصلى ركعتين وصليا، ثم أراهما المناسك وما يعملان به[1].

حيث أن ظاهرة تمثل جبرائيل لهذين النبيين (ع)، وارائتهما

---

(١) وسائل الشيعة ج ٨ ص ١٦٠ ـ ١٦٣.

المناسك بالعينة الخارجية، ولم يكن هذا بدعاً خاصاً بهما، بل قد تقدمهما آدم (ع) وتمثل جبرائيل (ع) له أيضاً كما تمثل لأفضل الأنبياء وخاتمهم (ص)، حيث يقول مولانا الصادق (ع): «إن الله بعث جبرائيل إلى آدم فقال.. إن الله أرسلني إليك لأعلمك المناسك التي تطهر بها، فأخذ بيده فانطلق به إلى مكان البيت، وأنزل عليه غمامة فأظلت مكان البيت، وكانت الغمامة بحيال البيت المعمور... إلخ[1]. ويقل (ع): كنتُ أطوف مع أبي، وكان إذا انتهى إلى الحجر مسحه بيده وقبله، وإذا انتهى إلى الركن اليماني التزمه، فقلتُ: جعلت فداك تمسح الحجر بيدك وتلتزم اليماني! فقال: قال رسول الله (ص): «ما أتيتُ الركن اليماني إلا وجدت جبرائيل (ع) قد سبقني، الله يلتزمهُ»[2]. وستقف على الوحي المتمثل في مطاوي المباحث القادمة كالماضية، وتعثر أيضاً على ما لم نأتها دوماً للاختصار.

فإذا تبين، أن الحج هو وحي مُمثل، وتلقاه مؤسس الكعبة بالمشاهدة والرؤية، يكون الناس مأمورين بإتيان ما ورثوه منه، وبالنظر إلى ما رآه لعلهم يرون شيئاً مما رآه ويشاهدون نزراً مما شاهده. إذ النظر إلى ظاهر الكعبة المأمور به مقدمة لرؤية ملكوتها. لذا يتجه معنى قوله تعالى: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميقٍ﴾ (سورة

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) وسائل الشيعة ج ٩ ص ٤١٩.

الحج، ٢٧)، إذ المُستفاد من قوله تعالى ـ يأتوك ـ هو مجيئهم عند إبراهيم ولقائهم إياه ونيلهم ما ناله وشهودهم ما شاهده، لا مجرد إتيان البيت وشد الرحال إلى مكة، إذ التعبير القرآني ليس هو مجرد العمل بالمناسك، بل التعبير هو قوله تعالى ـ يأتوك ـ تدبر. ولا يأتي إبراهيم إلا من تهيأ وتعبأ وأعد واستعدّ للقيام تجاه الطغاة اللئام الذين يقولون ـ ﴿حرقوهُ وانصروا آلهتكم﴾ الأنبياء، آية ٦٨).

إذ الكعبة كما تقدم قيام للناس، ولا قيام إلا أن يقول القائم لعبدة الأوثان والأهواء ﴿أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله﴾ (الأنبياء، ٦٧) ولا قيام إلا أن يقول القائم للذين كفروا ومردوا على النفاق: ﴿إني براء مما تعبدون﴾ (سورة الزخرف، آية ٢٦). ولا يأتي إبراهيم إلا من يقول ـ «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً». وبالجملة، لا يأتيه إلا من أتى الله بقلبٍ سليم، كما أتاه تعالى إبراهيم به.

ومن ذلك كله يتجلى قوله تعالى ﴿وأذانٌ من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر، إن الله بريءٌ من المشركين ورسوله، فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا إنكم غير معجزي الله، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ (سورة التوبة، آية ٣).

وهذا هو خاتم النبيين الذي كان هو أولى بإبراهيم (ع) ورأى ما رآه «وما كذب الفؤاد ما رأى»، وبصر بما بصر به إبراهيم، (وما زاغ البصر وما طغى) وتولى ما تولاه إبراهيم، ﴿إن ولي الله

الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾ «وتبرء مما تبرء منه إبراهيم» ﴿إن الله بريء من المشركين ورسوله﴾.

وحيث أنه (ص) دنىٰ فتدلى فقاب قوسين أو أدنى ذبح بما لم يذبح به إبراهيم (ع)، حيث ذبح من هو من رسول الله ورسول الله (ص) منه، وهو الحسين بن علي (ع) المذبوح على القفا صوناً للكعبة عن الطغاة اللئام وايثاراً لمصارع الكرام على طاعة اللئام.

والسر في ذلك كله هو أن رسول الله (ص) قال: «أنا من حسين وحسين مني». ثم قال الحسين (ع): «يا أيها الناس إني سمعت رسول الله يقول: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله ناكثاً لعهده يعمل في عباده بالظلم ولم يغيّر عليه بقول ولا فعل حق على الله أن يُدخله مدخله»، أي معه في النار. فالحسين الذي كان من رسول الله (ص) منه، فدا نفسه وضحى بأهل بيته وأصحابه، صوناً للدين الإلٰهي عن الزيغ والتحريف، وحفظاً لعهده من النكث، ولخلقه من الظلم.

ومن ذلك كله يظهر لك البعد السياسي للحج، حيث أن التبرء من المشركين والحياد عنهم والانزجار منهم وقطع أيديهم والإعلان الصريح بذلك، هو منسك سياسي للحج، كما يهتف به قوله تعالى المتقدم، ﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر إن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ (سورة التوبة، آية ٣) ويمكن أن نشير إليه إجمالاً حيث يحين حينه.

نتحصل أن الحج، بما له من السُنن الخاصة التي تمثلت للأنبياء، هو بنفسه وحي ممثل. فهو من أهم مظاهر الإسلام، وصالح لتحقق الأصلين المارين، من الكلية والدوام. ولذا جرى لخاتم الأنبياء ما جرى لإبراهيم (ع) وقبله لآدم (ع). فليس الحج شرعة خاصة ومنسكاً مخصوصاً، يختص بشعب دون شعب، أو عصر دون عصر، بل هو كلي دائم حسبما قرر في بيان كون الكعبة أول بيت للناس، وقياماً للناس، ومثابة وأمناً للناس؛ وكون الحج مفروضاً على الناس وأذان إبراهيم (ع) متجهاً نحو الناس، وكون المسجد الحرام سواء العاكف فيه والباد، وكون الحج معياراً لحساب السنين والأعوام حيث كانوا يرقمونها به، كما يشهد له قوله تعالى: **﴿على أن تأجرني ثماني حجج﴾** (سورة القصص، ٢٧)، حيث جعل الحج معياراً لعدّ السنين فعبر عن ثماني سنين بثماني حجج، لأن في كل سنة حجاً واحداً، واشتهارها به يوجب عدّها به، وجعله ميزاناً لها.

وبعد الإحاطة بما ذكر، والعثور على ما دارج بين الأقوام والملل، كهند وفارس وكلدان واليهود، من تكريم الكعبة والسفر إليها وزيارتها بنحو من الأنحاء؛ وبعد التنبه لما في التعبير عن مكة بـ (بكّة) الدال على الزحام والتراكم والمجتمع العام، يتجه معنى قوله تعالى: **﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدي للعالمين﴾** (سورة آل عمران، آية ٩٦) حيث جعل ذلك أمراً عالمياً، يشمل جميع الشعوب والأقطار والأعصار، فمعه

يتضح الأصلان المتقدمان أي الكلية والدوام، وضوح الرائعة وصلوح الحج، لأن يتبلور به ذلك الأصلان، وإلا لم يكن هدى للعالمين، بل كان منهاجاً لقوم خاص، وهذا خلاف. ويشهد له قول علي (ع): ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لُدن آدم (ع) إلى الآخرين من هذا العالم، بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيتهُ الحرام الذي جعله للناس قياماً(١).

الجهة الثالثة: في أن الحج معاد مُمثل.

قد تبين مما تقدم من الجهتين، أن الحج توحيد مُمثل، وكذا هو وحي مُمثل. والكلام هنا هو أنّ الحج معاد ممثل، وأن مناسكه انموذج للقيامة والحشر الأكبر. وبيانه: بأنه كما أن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم **﴿وإنهم يأتون الله فرادى﴾** كما خُلقوا أول مرة، وأن أناس يُدعون بإمامهم، وإن لكل امرءٍ يومئذٍ شأناً يُغنيه، وأنه لأولي هناك ولا حميم، وأنهم من الأجداث إلى ربهم ينسلون، وأنه لا وزر هناك لأحد وإلى ربهم المستقر، وأن تدع مُثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى، وإن كلهم آتية يوم القيامة فرداً، ويفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، ولا خلة ولا بيع ولا شفاعة هناك. وبالجملة لا تجزي نفس نفساً ولا تملك نفس لنفسٍ شيئاً،

---

(١) نهج البلاغة الخطبة القاصمة ١٩٢.

والأمر يومئذٍ لله.

كذلك الحج تمثل لحشر الناس يوم القيامة[1] في الساهرة التي لا نوم فيها خوفاً وفزعاً، ولتجردهم في المعاد عن الأزياء ومظاهر الحياة الدنيا. فلا مجال لشعب أن يقولوا نحن أحسن أثاثا ورئياً، وتنزهم عن زهرة الدنيا وكنوزها. فلا موقع لأن يقول قوم يا ليت لنا مثل ما أوتي فلان، كما لا مجال لأحد أن يخرج في قوم بزينةٍ ولفرارهم عن غير الله إلى الله، حسبما فسر قوله تعالى ﴿ففروا إلى الله﴾ ـ بالحج ـ، ولتفردهم عن المجمع، وكذا رؤيتهم آيات بينات كانت خُفيت عليهم وهم في بلدانهم، ولبسهم ما يشبه الكفن وهو ثوبا الإحرام، ويستحب للحاج أن يكفن فيهما كما كفن رسول الله (ص) في ثوبي احرامه[2]، وتندّ لهم الله مشاة بل حفاة، حيث ورد «ما عبد بشيءٍ أفضل من المشي»[3]. ولذا حج الحسن بن علي (ع) عشرين حجة ماشياً على قدميه[4]. وعن الصادق (ع) جعل السعي بين الصفا والمروة مذلة للجبارين ولاعترافهم بالذنوب، حيث كشف مولانا الصادق (ع) وهو محرم عن ظهره حتى أبداه للشمس، وهو يقول: «لبيك في المذنبين

---

(١) عن مولانا الصادق في قوله تعالى: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾ قال (ع) المشهود يوم عرفة، والمجموع له الناس يوم القيامة ـ وسائل الشيعة ج ١٠ ص ٢٣.

(٢) وسائل الشيعة ج ٩ ص ٣٧.

(٣) وسائل الشيعة ج ٨ ص ٥٥.

(٤) المصدر نفسه.

لبيك»[1] وكان (ع) إذا انتهى إلى الملتزم قال لمواليه، أميطوا عني حتى أقر لربي بذنوبي في هذا المكان إلخ[2]. ولأمنهم وأمان الوحش والطير ولصيانتهم عن العدوان والجدال وكل ما يوجب الأذى المحرم، حيث أنه تمثل قوله تعالى ﴿لا ظلم اليوم﴾.

والحاصل أن الحج بما له من المناسك الخاصة التي لا توجد في غيره، من الإحرام والوقوف بساهرة العرفات، والمشعر مشفوعاً بالضراعة والابتهال، والبيتوتة بمنى والتضحية هناك والحلق ورمي الجمار، والنفر إلى مكة، والهرولة بين جبلي الصفا والمروة وغير ذلك، مما لا يعلم تأويله إلا الله، يحكي يوم النشور ويُمثّل يوم الحشر، حيث أن الناس هناك مع اختلاف ألسنتهم وألوانهم، يلبون نداءاً واحداً ويجيبون هتافاً فارداً، لا يحكم عليهم إلا الواحد القهار الذي تخضع له الرقاب وتعنو له الوجوه وتخشع له الأصوات فلا تسمع إلا همساً.

فإذا تبين أن الحج مُمثل للمعاد ومصور إياه، والمعاد أي العود إلى المبدء أُسس الإسلام الكلي الدائم، فعليه يكون الحج من أهم مظاهر الإسلام وهو ـ أي حج البيت الحرام ـ مظهر تام للأصلين المتقدمين، أي الكلية والدوام. ولذا ترى الأنام يردونه ورود الأنعام، ويألهون إليه ولوه الحمام، ويقفون مواقف الأنبياء،

---

(١) وسائل الشيعة ج ٩ ص ٥٥.
(٢) وسائل الشيعة ج ٩ ص ٤٢٤.

ويتشبهون بالملائكة الحافين المطيفين بالعرش، ويحرزون الأرباح في متجر العبادة، ويتبادرون موعد المغفرة، وهو كما قال وليد الكعبة أمير الكلام مولى الموحدين علي بن أبي طالب: علم للإسلام وحرم للعائذين.

فالبيت الحرام بماله من الحكم الخاص، علم للإسلام، فرض الله حقه وأوجب حجه وكتب على الناس وفادته[1]. فقال سبحانه **﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾**.

الجهة الرابعة: في أن الحج مُمثل للحكومة العليا الإسلامية.

قد تبين لك أن الحج ممثل لأصول الدين الأصيلة وجذوره العريقة، وحيث أن الأصل الثابت يُؤتى أكله كل حين بإذن ربه، ولا أصل حيث لا ثمر، كما لا ثمر بدونه، وأن الحج ممثل لثمرة هذه الشجرة الطيبة، أي العقائد والمعارف الثلاثة: من التوحيد والنبوة والمعاد. وإن من أطيب ثمارها هو الحكومة الإسلامية التي لا يتخذ فيها بعضنا بعضاً أرباباً. فيلزم البحث حول هذا الأمر الهام الذي لولاه لإندرس الدين وزال الحق وضاع، إذ لو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض، حيث أن المجتمع

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١.

الذي لا يحكم فيه الله هو مجتمع الكفر والطغيان الذي إلهه هواه. والأهواء مختلفة والأماني شتى، فأين يذهبون وأين يُتاه بهم وأضلهم الله على علم، ولهذا شواهد:

الشاهد الأول: على أن الحج ممثل للحكومة الإسلامية، هو أنّ إبراهيم (ع) لما رفع مع ابنه إسماعيل قواعد البيت، دعا ربه بأدعية راقية أجابها الله تعالى. ومنها قوله: ﴿**ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم**﴾ (سورة البقرة، ١٢٩).

حيث أن الأمة المسلمة، إذا دعوا من أقطار العالم في جميع الأعصار إلى حج البيت، وأجابوا ربهم وأتوه على كل ضامرٍ ومن كل فجٍ عميق، فلا بد لهم ممن ينظم أمورهم وينضدها. ولا بد لهم أيضاً من أصول وأحكام يجرون في أمورهم السياسية عليها عدا ما لهم من المناسك العبادية، فكيف يمكن أن يجتمعوا في صعيد واحد ولكل منهم آداب وسنن، بل كيف يمكن نظم أمورهم، لولا الأصل المقبول لهم جميعاً، ولولا الشخص الذي يسلمه الكل، السائر فيهم جميعاً بسنة واحدة يتلقونها بالقبول، ويسوسهم بقانون فاردٍ يخضعون لديه، وهذا هو الحكومة.

ومن هنا ترى نصوص باب الحج تنادي بأن لهؤلاء الذين

أجابوا ربهم، إماماً واحداً[1]، يطيعونه ويسلمون له، وحاشا الإسلام الذي يقول ـ إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمروا أحدكم ـ يتركهم سدى ولا يُعين الأمر الحاكم على هؤلاء الجم الغفير الذين يسيحون أقطار الأرض وآفاق السماء، ويطوون البلاد ويطئون البراري والصحارى، ويسبحون البحار ويطيرون في السماء. وبالجملة ـ على كل ضامرٍ يأتين من كل فج عميق ـ، ويدع هؤلاء وأهوائهم وأمانيهم ـ كل يجر النار إلى قرصه ـ فأين قول علي (ع) ـ ونظم أمركم ـ.

الحج له خصيصة لا توجد في غيره، لأن الجماعة الصغيرة المتحققة بالإثنين في الصلوات اليومية ـ الإثنان وما فوقهما جماعة ـ يتكامل بالجماعة الوسطى التي لا تتحقق إلا بالسبع أو الخمس في صلاة الجمعة، التي إذا نودي من يوم الجمعة يسعون إلى ذكر الله ويذرون البيع ويجيبون ندائها عن بعد ستة أميال، ولا يقيمون جمعة أخرى على مسافة ثلاثة أميال، ثم يتكامل ذلك بالجماعة الكبرى التي لا حد لها في الحج فهل يمكن أن لا يكون لذلك سياسة خاصة، تسوسهم في معاملاتهم، وتضارب أرائهم، وفصل خصوماتهم، وكيفية معيشهم، والرابطة التي بينهم بعضاً إلى بعض، والإرتباط المتصور بينهم وبين غيرهم من الملل الأخرى.

والشاهد الثاني: على أن الحج مُمثل للحكومة الإسلامية،

---

(١) وسائل الشيعة ج ١٠ ص ٥ ـ ٧.

وأن لها تأثيراً في بقائه وتكرره، هو ما قاله مولانا الصادق (ع): لو عطل الناس الحج لوجب على الإمام أن يجبرهم على الحج إن شاءوا وإن أبوا، فإن هذا البيت إنما وضع للحج. وكذا قال (ع)... ولو تركوا زيارة النبي (ص)، لكان علي الوالي أن يجبرهم على ذلك، وعلى المقام عنده، فإن لم يكن لهم أموال أنفق عليهم من بيت مال المسلمين[1].

والسر في قوله (ع)، إن هذا البيت إنما وضع للحج، هو ما تبين في ثنايا البحوث المارة من أنه بيت عتيق يدرس الحرية والانعتاق من كل هوىً ورِوىً داخلي أو خارجي، وإنه بيت أسس على التوحيد يدرس نفي الشرك الجلي والخفي، وأنه بيت طاهر يدرس الطهارة عن كل رجس وقذارة، وأنه بيت سواء العاكف فيه والباد فيدرس المساواة بين الأبيض والأسود، ويعلمهم أنهم سواسية كأسنان المشط، وماله من سائر المآثر القيمة التي توجب على الناس شد الرحال إليه، وإن تركوه قصوراً أو تقصيراً، يجب على والي المسلمين أن يسد خلتهم إن قصروا، وأن يجبرهم إن قصروا، حتى يأتوه ويطوفوا حوله ولا يتركوه، وهذا هو الحكومة الإسلامية التي لها حاكم عادل وبيده بيت مال المسلمين.

أضف إلى ذلك قوله (ع): ولو تركوا زيارة النبي (ص)... إلخ. حيث يظهر منه أن زيارته (ص) تجديد ميثاق، ومبايعة

---

(١) وسائل الشيعة ج ٨ ص ١٥ و ١٦.

لتحكيم الحكومة الإسلامية.

والشاهد الثالث: على أن الحج ممثل للحكومة الإسلامية، ما قاله مولانا محمد بن علي الباقر (ع): إنما أمر الناس أن يأتوا هذه الأحجار ليطوفوا بها ثم يأتونا فيجزونا بولايتهم ويعرضوا علينا نصرهم[1]، حيث يدل على أن الحج، عبارة عن الطواف والسعي والرمي، ونحو ذلك مما له مساس بالأحجار التي لا تضر من تركها ولا تنفع من أتاها، وعبارة عن لقاء الإمام، (تمام الحج لقاء الإمام)، وإتيانه واعلامه الولاية وعرض النصر والإطاعة، الذي هو لبّ الحج ومغزى العمرة ولباب الكعبة. فلولا الحكومة والولاية بمعنى السياسة، لما احتيج إلى أخبار الولاية وعرض النصرة.

وإياك وأن تتوهم أن المراد من الزيارة المندوب إليها في الحج، هو زيارة القبور فقط، وإن كانت تلك أيضاً من حقوق الولاية، لأن المعصوم حياته ومماته سواء، إذ كان موته كحياته لله حيث قال: ﴿...**إن صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين**﴾ بل المراد منها أولاً، هو لقاء الوالي الإسلامي واعلامه الولاية وعرض النصرة عليه، وثانية، هو الحضور عند قبره والصلاة عليه والدعاء والابتهال والضراعة إلى الله تعالى، ولذا قال (ع) ابدأوا بمكة واختموا بنا[2].

---

(١) وسائل الشيعة ج ١٠ ص ٢٥٢ ـ ٢٦٠.

(٢) وسائل الشيعة ج ١٠ ص ٢٥٢ ـ ٢٦٠.

ومن هنا يظهر سر قوله تعالى: **﴿لا اقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد﴾** (سورة البلد، آية ١ و ٢)، حيث يُستفاد منه أن البلد الأمين لا حرمة له لولا محمد الأمين (ص)، وإن الأقسام بمكة إنما هو بحلول رسول الله في ذاك المحل، وأنه لولاه لما صارت مُقسماً بها.

كما أن الحلف بالزمان الخاص، وهو عصر الرسالة في قوله تعالى: **﴿والعصر إن الإنسان لفي خُسر﴾** ـ إنما هو بلحاظ المتزمن المخصوص، وهو النبي المبعوث. يعني أن حرمة ذاك المكان وهذا الزمان، بحرمة المتمكن والمُتزمن، أي الحاكم على أمور المسلمين بإذن الله.

فتبين أن مغزى الحج وروحه، لقاء الوالي وعرض النصرة عليه والقيام معه والرغبة إليه والرهبة عن مخالفته ونحو ذلك. ولولا الوالي الإسلامي والحاكم الإلٰهي، لعادت مكة إلى ما لها من سوق عكاظ، وصارت الكعبة مأوى للأصنام ومحلاً للأوثان، لعلا هُبل على ظهر الكعبة، ولتباع مقاليدها ببعير وزق من خمر كما مرّ، تدبر.

والشاهد الرابع: على أن الحج للحكومة الإسلامية، هو أن الإسلام الذي بعث به الأنبياء، وإنما يتجلى في التوحيد المحض الذي يطرد بنفسه أي شرك، حيث قال تعالى: **﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾** (سورة النحل، آية ٣٦)، ومعنى اجتناب الطاغوت هو جعله في جانب وحيز، ثم

الاستقرار في جانب وحيّز آخر منفك عنه، حتى يصدق الاجتناب ويصدق كونه منحازاً، وأما عند الإلتقاط والاختلاط فلا مجال لصدق الاجتناب وليس مفاد هذه الآية الكريمة إثبات أمرين بالاستقلال، أحدهما، لزوم عبادة الله، وثانيهما طرد الطاغوت، بل مفادها التنبه بما فطر الناس عليه، وهو التوحيد وعبادة الله، التي يطرد بنفسه الطغيان ويدفعه، كما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر في العبادة الفرعية كذلك التوحيد ينفي الطاغوت في العبادة الأصلية.

ومن هنا يقال، إن لفظة (إلا) في الكلمة الطيبة، أعني لا إله إلا الله، بمعنى ـ غير ـ لا بمعنى الإستثناء؛ يعني أن مفادها هو لغي الألهة التي تكون غير الله، الذي تخضع له الرقاب ويسجد له من في السموات والأرض؛ وهذا الطرد والنفي ليس مجرد الاعتقاد القلبي أو الذكر القالبي، بل هو إعلام انزجارٍ ونداء تبرىء وهتاف براءةٍ وصيحة خاطفة، تجاه الطغاة اللئام في البعد السياسي وغيره؛ وهذا المعنى إنما يتحقق في الحج، حيث أنه موضع إعلام وأذان بأن الإسلام بريء من الشرك، وأن المسلمين يتبرون من المشركين، وأن لا ولاية بين أهل الإسلام وأهل الشرك، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿**وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله**﴾ (سورة التوبة، آية ٣)، إذ مفاد هذه الآية، كما تقدم سابقاً، هو تبلور البعد السياسي في الحج وتجلي الاستقلال الثقافي فيه بحيث لا سيطرة

لأحد من الكفار والمشركين على أحد من المسلمين. وهذا الهتاف البارق إنما يتحقق في الساهرة التي أتاها الناس من كل فجٍ عميقٍ ليبلغ الشاهد منهم الغائب فينتشر في العالم نشر رائحة المسك، فهل هذا إلا تمثل الحكومة الإسلامية بأعلى مراتبها في الحج، وهل يمكن طرد صناديد الإلحاد وتحطيم صياصيهم إلا في ضوء الحكومة الإسلامية، فلولا حضور السياسية الإسلامية في ساهرة العرفات والمنى الذي فسر بهما ـ الحج الأكبر ـ، لما أمكن من إعلام التبرىء من عمال الجور وعبدة الطاغوت، ولولا ولاية المؤمنين بعضهم مع بعضهم ومبايعتهم لمن هو وليهم المنصوب من الله، أو المأذون من قبل أولياء الله، وصيرورتهم يداً واحدة على من سواهم، لما ينشر إعلان العداوة والبغضاء تجاه هؤلاء الجبابرة الذين أهمتهم أنفسهم ويأكلون ويتمتعون ويُلهِهِم الأمل، ولولا الاقتدار المتشكل السائس، لما أمكن دفع هؤلاء الأكاسرة والقياصرة. ولولا دفعهم لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله. فلولا الحج لاندرست تلك المراكزالعبادية رأساً، ولولا تلك المراكز العبادية لفسدت الأرض، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض.

والحاصل أن التجلي التام في تلبية النداء الإلٰهي إنما هو في الحج الأكبر وهو أيام العرفة والتشريق، والبرنامج البالغ حينذاك هو اعلام التبرىء والبغضاء قبال الكفار والمشركين، وهذا لا ينتشر بدون الحكومة الإسلامية التي يمثلها الحج أتم تمثل، ويقررها الكعبة البيت الحرام التي جعلها الله قياماً للناس.

ومن الواضح أن الناس الذين لا حكومة لهم يكونون في أمر مريج، فأين لهم أن يقوموا بالقسط قبال القاسطين، وأن يقوموا بالعدل قبال الظالمين، وأن يقاتلوا في سبيل الله صفاً كأنهم بنيان مرصوص.

وبالجملة، أن القيام الشعبي والمقاومة العالمية والاستقامة الشاملة، التي بنيت الكعبة البيت الحرام لأجلها، لما ينتشر بدون الحكومة الإسلامية، التي هي من أهم مظاهر الإسلام. فنجز الوعد بحمده تعالى وتبين أنه كيف يكون الحج من أهم مظاهره، فإذا لم يكن هناك حكومة إسلامية لما كان للحج لبٌّ[1]، وللعمرة روح، ولعرفات معرفة، ولمنى تقرب، ولرمي الجمار طرد للشيطان، ولأيام التشريق نور، وللشهر الحرام حرمة، ولليال عشرٍ كرامة، وللشفع والوتر عزة. وبالجملة لما كان البيت الحرام مثابة للناس وأمناً لهم، ولعله لذلك كله، ولما لا يعلم من الأسرار الإلٰهية، لم يحج مولانا سيد الشهداء الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام، ولم يقصد التمتع بالعمرة إلى الحج بادىء الأمر، ولم يلبِّ تلبية العمرة المتمتع بها، بل اعتمر عمرة مفردة فقط، وذلك لحرمة البيت. وكان من قصده (ع)، الخروج من مكة، لا أنه (ع) قد لبى بعمرة التمتع، واشتبك حجهُ بعمرته، وصار رهيناً بالحج، إلا أنه صار مصدوداً مثلاً ثم بدل حجة التمتع

(١) الوافي، كتاب الحج باب النوادر.

بالعمرة المفردة، بل كان اعتماده بادىء الأمر بالعمرة المفردة، حسب ما دل عليه النص حيث أنه سُئل مولانا الصادق (ع) عن رجل خرج في أشهر الحج معتمراً ثم خرج إلى بلاده، قال (ع): لا بأس وإن حج من عامه ذلك وأفرد الحج فليس عليه دم، وإن الحسين بن علي (ع) خرج يوم المروية إلى العراق وكان معتمراً. وتنبه له سيدنا الأستاذ فقيه أهل البيت آية الله العظمى السيد المحقق الداماد، قدس الله نفسه الزكية، وأفاده في الدرس[1].

ويؤيد ذلك ما قاله سيد الشهداء في دعاء العرفة مما يرجع إلى الحكومة. ومن أراد أن يتضح له اتضاحاً رائعاً أنه كيف يكون الحج مُمثلاً للحكومة، فلينظر ماذا فعله رسول الله في حجة الوداع، وما قاله للناس وقرره لهم من مهام الأمور السياسية وغيرها، فارتقب.

الجهة الخامسة: في أن الحج مُمثل للخلق العظيم.

قد تبين أن الحج توحيد مُمثل، وكذا أنه وحي ممثل، وأنه معاد ممثل، واتضح أيضاً أنه ممثل للحكومة الإسلامية، والكلام الآن فيما هو الغرض الأسنىٰ والهدف السامي من العبادة، وهو اليقين الذي يُمثله الحج ويحصله أتم تحصل، واليقين هو الخلق العظيم الذي تخلق به رسول الله (ص) حيث وصفه الله تعالى بقوله: ﴿إنك لعلى خلق عظيم﴾، كما تخلق به أيضاً مؤسس

---

(١) كتاب الحج للمؤلف ج ١ ص ٣٣٣، وسائل الشيعة ج ١٠ ص ٢٤٦.

الكعبة إبراهيم، الذي نعته الله بقوله: ﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾ (سورة الأنعام، آية ٧٥).

وبيان ذلك هو أن العبادة وإن كانت غاية الخلقة بالمعنى المتقدم في المقدمة، إلا أنها بنفسها مقدمة لليقين ومغياة به، حيث قال تعالى: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ هو الهدف السامي والمنفعة المطلوبة، لا الحدّ والنهاية، لأن تلك غاية الحركة لا ماهو الأجل منها؛ واليقين المُستفاد من العبادة يصير بعينه مبدء لها بلا عطلة وغفلة أصلاً. وكم فرقٍ بين العبادة الصاعدة إلى اليقين والعبادة الصادرة من اليقين، الذي يتحد فيه غاية العقل النظري وغاية العقل العملي، فيصير الشهود هناك بعينه قدرة، والعلم بنفسه عملاً والمعرفة بذاتها مصدراً، ولا يتخلف عنه شيء من عملٍ صالحٍ، ولا يشذ منه شيء من أدب حسنٍ، فيصير هو، أي اليقين، بنفسه خلقاً عظيماً، إذ لا ميز هناك بين الشهود والعمل، إذ الخلق العظيم لا يتحقق بدون الشهود، كما أن العمل الصالح والأدب الطيب لا ينفك عن الشهود، بل الشاهد هو بنفسه من الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون. فالشاهد المتيقن هو العابد، فهو المتخلق بخلق عظيم، لا يعبد الله خوفاً من ناره، ولا شوقاً إلى جنته بل حباً له تعالى. وهذا هو المقام المكنون الذي لا يمسه إلا المطهرون.

فإذا تحصل أن العبادة تورث اليقين، وأن الحج عبادة

خاصة، يلزم البحث عن كيفية كونه مورثاً لليقين الذي هو الخلق العظيم، الذي يتحد هناك الخلق والمتخلق فيصير هو أيضاً، كما ورد عن الصادق (ع)، أنه من تعلم العلم وعمل به وعلمه لله تعالى، دُعي في ملكوت السموات عظيماً. يعني أن العالم العامل المعلم، إذا كان جميع هذه الشؤون التي اتصف بها الله تعالى يدعى في باطن السموات عظيماً. وكم فرق بين من هو عظيم ومن له فوز عظيم وأجر عظيم وفضل عظيم. وكم فرق بين من هو مندوب إلى قوله تعالى ﴿والله خير وأبقى﴾ ومن هو مندوب إلى قوله تعالى: ﴿وما عند الله خير وأبقى﴾ومن هو مندوب إلى قوله تعالى: ﴿وما عند الله خير وأبقىٰ﴾، وكم فرق بين من هو صالح وبين من عمله صالح، إذ الصالح هو الذي يتولاه الله الذي هو يتولى الصالحين، وأما الذي يعمل صالحاً فهو بعد ممن يتولى الله. وكم فرق بين من هو خالص ويستخلصه الله لنفسه فهو من المخلصين ـ بالفتح ـ ومن عمله خالص وهو من المخلصين ـ بالكسر ـ.

والحج عبادة خاصة تورث الخُلق العظيم، بما له من الأسرار والرموز القريبة، نشير إلى نُبذٍ منها فيما يلي:

أحدها: أن الحج بماله من التكرمة الخاصة، ليس تكليفاً عبادياً يُؤمر به كالصلاة والزكاة، بل هو ميثاق إلٰهي يتشرف به، ولذا ليس التعبير عن لزوم الحج بسياق الخطاب الأمري، حسبما ورد في الصلاة والزكاة، نحو، أقيموا الصلاة وأتوا الزكاة، بل

التعبير عن لزومه إنما هو بلسان الميثاق الخاص والعهد المخصوص الإلٰهي، حيث قال تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت﴾، ومثل هذا العهد يأخذ كلمة اللام واسم الجلالة وتقديمه على المتعلق، لم يعهد في غيره من العبادات، وإن ورد في بعض الروايات أن الصوم لي، ولكن الحج أيضاً واجد للصوم حيث أنه من لم يجد الهدي يصوم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى بلده. كما أن جميع ما ورد في الصلاة يتحقق في الحج أيضاً لأنها فيه طوافاً هو بنفسه صلاة، وفيه أيضاً صلاة لأن الطائف يتخذ من مقام إبراهيم مُصلاً يصلي فيه، ويناجي هناك ربه، وبه يقيم عمود دينه ويتقرب بذلك من مولاه، فينال جميع المزايا التي للصلاة. وهكذا ينال البركات التي للزكاة، حيث أن في الحج انفاقاً مالياً ونثاراً وايثاراً مزيلاً للشح، الذي أحضرت الأنفس الشحّ، ووقاية لها عن التلوث بذاك الشحّ والبخل - ﴿ومن يوقَ شُحّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾.

والحاصل أن الحج مؤلف من العبادات الخاصة، وشامل لفضائلها[1] الجمة مع ماله من الميز الخاص الذي لا يوجد في غيره، وهو أنه عهد خاص بين الله تعالى والعبد، ولذا قال الصادق (ع): ودّ من في القبور لو أن له حجة بالدنيا وما فيها[2].

---

(١) وسائل الشيعة ج ٨ ص ٧٨ و ٨١ و ٨٢.
(٢) المصدر نفسه.

وثانيها: أن الحج بما له من التلبية الخاصة، إخفاتاً وجهراً، طارد لآية جاهلية كانت أو تكون، وكاسر لأي صنم جاهلي نُحت، ولأي وثن جاهلي يُنحت، ودامغ لأي باطل بدء أو عاد، فإذا هو زاهق وشاف لما في الصدور، من داء الرياء والهوى المتبع والشح المُطاع واعجاب المرء بنفسه، وذلك أن تلبية الحج في الجاهلية كانت نداءً للشرك وهتافاً للوثنية، حيث كانوا يلبون.. لبيك لا شريك لك إلا هو لك تملكه وما ملك..، ويثبون بذلك لله سبحانه وتعالى شريكاً وإن كان ذلك الشريك أيضاً له.

وأما التلبية في الإسلام، فتكون ضراعة إلى الواحد المحض، وصيحة خاطفة على أي شركٍ جلي أو خفي، فمعه لا يبقى لغيره تعالى ظهور حتى يلتجيء إليه ولا قدرة له حتى يعتصم بها، بل هنالك الولاية المطلقة لله الحق، ويتضح بذلك اتضاحاً رائعاً لمن يشاهد الجهر بهذه التلبية في البيداء، والصياح بها في الساهرة، والتداوم عليها، كلما علا تلعةً وهبط وادياً.

ويشهد له ما يستفاد من نصوص أهل البيت، أن من استن بسنة جاهلية أو تلوث بقذارة المال الحرام ثم لبىٰ ـ نودي عند التلبية لا لبيك ولا سعديك[1].

ولذا قال مولانا الكاظم (ع): إنا أهل بيت حج صرورتنا

---

(١) وسائل الشيعة ج ٨ ص ١٠٢.

ومهور نسائنا وأكفاننا من طهور أموالنا[1] . وما ذلك إلا أن تلبية الحج تلبية لبىٰ بها المرسلون في الأرض حذاء ما يُسبحون به في الطواف حول العرش حسبما تقدم مبسوطاً.

ومما يشير إلى ما ذكر من كون الحج صيحة على الجاهلية، هو ما يعثر عليه المتتبع في نصوص هذا العهد الإلٰهي، من نقل ما ورد من تلبية إبراهيم الخليل وموسى الكليم وخاتم النبيين عليهم أفضل صلوات المصلين، أكثر وأوفر ما ورد في غير هؤلاء الأطيبين من الأنبياء والمرسلين، الذين لا فرق بين أحد منهم ولكن الله فضل بعضهم على بعض، سيما في طرد الطغاة ودحض اللئام ودفع الجاهلية الجهلاء، الداخلية أو الخارجية. إذ الخليل طرد الطغاة بقوله: ﴿**أف لكم ولما تعبدون**﴾ والكليم ادحض اللّئام بقوله: ﴿**يا فرعون إني رسول من رب العالمين**﴾ (الأعراف، ١٠٤)، وخاتم النبيين (ص) دفع الجاهلية بقوله: ﴿**افحُكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون**﴾ (المائدة، ٥٠).

وثالثها: أن الحج بما له من التضحية الخاصة موجب للتقرب المخصوص الذي قلما يوجد في غيره، وذلك أن النحر أو الذبح الذي كان في الجاهلية، لم يكن خالصاً عن رجس الشرك، بل كان متلطخاً به كالتلبية والصلاة، حيث أنهم كانوا يلبون

---

(١) وسائل الشيعة ج ٩ ص ٤٧ و ٤٨ و ٥٥ .

بقولهم.. لا شريك لك إلا شريك هو لك..، وكانت صلاتهم عند البيت مكاء وتصديه حسبما تقدم، البيت مكاء وتصدية حسبما تقدم، وكان دأبهم بعد النحر أو الذبح، لتلطيخ الكعبة بدم الهدي المذبوح وتعليق شيء من لحمه عليها، حتى يتقبله الله. وأما الإسلام فقد جعل الهدي ذا حُرمةٍ خاصة لا يصح إحلاله، حيث قال: ﴿.. **لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد**﴾ ـ (سورة المائدة، آية ٢)، ثم قال في طرد تلك السنة السيئة، وبيان ما للهدي من القرب، ولعله لذا اشتهرت الأضحية بالقربان، ﴿**لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم**﴾ (سورة الحج، ٣٧)، حيث نزه الكعبة عن ذاك التلطيخ والتعليق، كما نزه الله عن الفاقة إلى اللحوم والدماء، دفعاً لمن يقول بعدم لزوم النحر أو الذبح، لأن الله غني عن العالمين، فلم يلزم على الحاج أن يذبح حيواناً، فأفاد بأن أصل الهدي لازم وأن الله غني عنه، وأن الذي يناله تعالى ليس هو اللحم أو الدم، بل الذي يناله هو روح العمل ولب الفعل، وهو التقوى.

ومدار الكلام الآن هو في خصوص هذا التعبير حيث قال تعالى ﴿.. **ولكن يناله التقوى منكم**﴾، والذي ينبغي التنبيه له هو أنه قد يقال بأن هذا العمل الصالح مثلاً مما يتقبله الله، وقد يقال أنه يصعد إليه الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، وقد يقال كما في المقام ـ يناله التقوى منكم ـ.

ولا خفاء على الخبير المتدرب أن هذه التعبيرات ليست سواء، ولا يكون على وزان واحد، لأن لفظ القبول يفيد أمراً، ولفظ الصعود إليه يفيد أمراً آخر فوقه،ولفظ النيل يفيد أمراً فائقاً لا يصعد إليه شيء من ذينك التعبيرين.

وكم فرق بين الصعود إلى الله وبين نيله تعالى، إذ الثاني يصرح بأنه لا حجاب حتى بين ذاك التقوى النائل وبينه وتعالى، بخلاف الأول، حيث أنه لا يصرح بذلك وإن لا ينافيه ولا وجه لحمل النيل على الصعود بعد أن لا برهان عقلي ولا نقلي على ذلك، بل يؤيد ما ذكر من حمل النيل على مفهومه العالي العاري عن النيل المادي ونحوه مما هو تعالى منزه عنه.

بعض ما ورد في أنه تعالى قد استتر بغير ستر مستور، واحتجب بغير حجاب محجوب، ليس بينه تعالى وبين خلقه حجاب غير خلقه.. أي الخلق ما دام متوجهاً إلى نفسه فهو حجاب ومحجوب عن ربه، والحجاب هنا نفس المحجوب لا ما هو الحائل بينه وبين المحجوب عنه، كما أن الربط الاشراقي والفقر الوجودي هو عين المرتبط الفقير لا ما هو الواصل بينه وبين المربوط إليه. فالموجود الامكاني هو بذاته ربط وفقر، كما أنه بذاته حجاب ومحجوب. فإذا لم يلتفت إلى ذاته، ولم ير نفسه، ولم يحب بقاءه الخاص به، بل دنى فتدلى، ولم ير إلا مولاه، ولم يحب إلا الله تعالى، ارتفع الحجاب وزال السحاب وتجلى نور السموات والأرض وانطمست النجوم الزاهرة وانمحت

الأقمار المنيرة، فهنالك يناله تعالىٰ هذه التقوى الأخص لا التقوى الخاص، فضلاً عن العام.

وحيث أن التقوى نعت خاص يتحد معه المنعوت به حسبما تقدم، إن هذه الملكات الفائقة تتحد النفس المجردة بها وتصير هي إياها، فلا ميز وجودي حتى بين التقوى والنفس المتقية المتحدة به. فعليه إذا بلغ التقوى شأواً قاصياً، ونال الله تعالى بالمعنى الممكن المعقول منه، تبلغ النفس المجردة المتقية ذلك الشأو القاصي، وينال الله تعالى بالمعنى المعقول منه، ولا يمكن أن يناله التقوى ولا يناله المتقي، إذ ليس التقوى إلا حقيقة وجودية خارجية متحدة مع النفس الكاملة. فأين الانفكاك (هنياً لحاج نحر هدية الله تعالى نحراً خالصاً لوجهه لا يبتغي بذلك إلا الله، فيناله تقواه ثم يناله هو بنفسه أيضاً لأن تقواه ليس بخارج منه) طوبى له وحسن مآب ـ تدبر ـ.

ولعله لهذه التقوى الغالي الموعود به في النحر سمي يوم النحر بالحج الأكبر[1]، ولأجله قال الصادق (ع): (إذا اشتريت هديك فاستقبل به القبلة وانحره أو اذبحه، وقل وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين. اللهم منك وبك بسم الله وبالله

(١) وسائل الشيعة ج ١٠ ص ٨٧ و ص ١٣٧.

والله أكبر اللهم تقبل مني)[1]، لأن النحر إذا كان بهذا التقوى لا يرى فيه إلا الله، ولا شأن لهذا الناحر إلا لله، حيث أن صلاته ونسكه ومحياهُ ومماته إلى جميع شؤونه لله رب العالمين، فحري بذلك أن ينال الله ويناله تعالى الناحر المتقي أيضاً.

وهذا هو الهدف السامي، أي الخلق العظيم، الذي يمثله الحج، بما له من الآداب والسنن الراقية. وإياك وأن تتوهم أن هذه الملكات أمور ذهنية أو نعوت عرضية أو نحو ذلك. فاقرأ يا حبيس قوله تعالى ﴿هم درجات﴾ (آل عمران، ١٦٣)، أي ذواتهم ونفوسهم صارت درجات. وأرق من قوله تعالى ﴿لهم درجات﴾ (الأنفال، ٤) لأن الأول للأوحدي من الأتقياء، والثاني للأوساط منهم. فاقرأ يا صاحبي قوله تعالى: ﴿فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم﴾ (الواقعة، ٨٩)، أي المقرب، ذاته روح ونفسه ريحان وقلبه جنة نعيم. وأرق من قوله تعالى: ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾، لأن الأول للأوحدي المخلص (بالفتح) والثاني للمتوسط المخلص (بالكسر). فاقرأ يا صاحبي قوله تعالى ﴿.. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾ (الفجر، ٢٩) وأرق من قوله تعالى: ﴿ادخولها بسلام آمنين﴾. فاقرأ أيها العارف الشاهد قوله تعالى) ﴿وما عند الله خير وأبقى﴾[2].

---

(١) وسائل الشيعة ١٠ ص ١٣٧.

(٢) الفتوحات المكية ج ١ ص ٦٨٦.

وإياك وأن تتوهم أن هذا الرقي بمعنى التنزه المحض كما في الملك المقرب، بل الإنسان كون جامع فله التنزه والتشبه معاً، ويجمعهما قوله تعالى: ﴿إن المتقين في جنات ونهرٍ في مقعد صدق عند مليكٍ مقتدرٍ﴾ (سورة القمر، آية ٥٥)، فللإنسان الأوحدي الشاهد جنتان، إحداهما جنة اللقاء، وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿.. وادخُلي جنتي﴾، والأخرى جنة تجري من تحتها الأنهار المُصرح بها في غير واحدة من الآيات. إياك أن تحصر الجنة في قوله تعالى: ﴿عند مليك مقتدر﴾، بعد التصريح بقوله تعالى: ﴿إن المتقين في جنات ونهر﴾. نعم ليس للأوساط من المؤمنين إلا جنات تجري من تحتها الأنهار دون جنة اللقاء.

وحيث أن درجات الجنة عدد الآيات القرآنية، مع ما بين كل درجة من البون البعيد، فعلى المتخلق بخلق عظيم أن يأتي ويقتدي بمن هو نفسه خلق عظيم، وهو رسول الله (ص)، إذ قال: ربّ زدني علماً. فيقول هو أيضاً: ربِّ زدني علماً، ولا يقف على حدٍ ولا يكتفي به، بل عليه أن يقرأ ويرقأ ويقتحم العقبة، ولا يقتصر على السهلة، فإذا كان أمامه قوله تعالى: ﴿اذكروني أذكركم﴾، لا مجال له أن يكتفي بقوله تعالى: ﴿إذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾، لما بين ذكر الله وذكر نعمة الله من الفضل البالغ، وإذا كان قدامه قوله تعالى: ﴿عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً﴾ لا يُمدَّ عينيه إلى قوله تعالى: ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً﴾ لأن تلك العين التي يشرب

بها عباد الله تكون خالصة محضة، وأما الذي يشربه الأبرار فهو ممزوج بمقدار ما من تلك العين لأنفس تلك العين، فللأبرار شراب ممزوج وللمقربين شراب خالص، حسبمايستفاد من آيات أُخر أيضاً نحو قوله تعالى: ﴿.. **ويُسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً، عيناً فيها تُسمى سلسبيلاً**﴾، (سورة الإنسان ١٧ ـ ١٨)، وقوله تعالى: ﴿**يُسقون من رحيقٍ مختوم، ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، ومزاجه من تسنيم، عيناً يشرب بها المقربون**﴾ (سورة المطففين، آية ٢٥ ـ ٢٨) حيث يدل على أن الأبرار يشربون من رحيق ممزوج من تسنيم لا الخالص منه، لأن الخاص من تسنيم إنما هو للمقربين الذين هم فوق الأبرار وهم شاهدون كتب الأبرار ويشهدون صحائفهم. وإذا كان أمامه قوله تعالى ﴿.. **وسقاهم ربهم شراباً طهوراً**﴾ (سورة الدهر، ٢١)، لا يكتفي بما اكتفى به المقربون فضلاً عن الأبرار. فاقرأ يا صاحبي هذا القول، الذي لم يوجد في القرآن الكريم إلا في موضعٍ واحدٍ، لا ندله واقض العجب من لطفه تعالى بعاده المخلصين، وتدبره حتى تجد أموراً نشير إليها.

الأول: إن الساقي ها هنا هو الله دون غيره من الموارد، حيث قيل هناك ـ يُسقَوْنَ ـ وقيل ها هنا ـ سقىٰ ـ.

الثاني: إن الشراب ها هنا، لم يجعل له وعاء، ولم يعين له آنية، ولم يقرر له كأس، ولم يُبين له رحيق، حيث لا يسعه وعاء ولا آنية ولا كأس ولا رحيق، إذ لا قدر ولا حدّ ولا نصاب

ولا مُنتهىٰ، لشرابٍ يكون ساقيه هو الله تعالى دون غيره من الأشربة، حيث قد عين لها أوعية وأواني ونحوها.

الثالث: إن الشراب ها هنا، لم يجعل له عين يذخر فيها، أو ينبع منها، وما إلى ذلك دون غيره من أشربة الأبرار أو المقربين، حيث عين لها عيون ومنازل خاصة، يخزن فيها وينبع منها.

الرابع: إن الشراب ها هنا، قد وصف بما لم يوصف به شراب قط، ونُعت بما لم يُنعت به غيره أصلاً، وهو قوله تعالى: **﴿شراباً طهوراً﴾**. وقد فسره من شربه، وهو مولانا جعفر بن محمد الصادق (ع) بقوله: **﴿يُطهرهم عن كل شيء سوى الله﴾**[1] فهنالك الرقي، وإن إلى ربك المُنتهى، فإذا بلغ الكلام إلى الله فامسكوا.

فلنرجع إلى ما كُنا فيه، وهو أن الحج بما له من التضحية الخاصة موجب لتقرب قلما يوجد في غيره، فهو ممثل للخُلق العظيم بالمعنى المتقدم.

ورابعها: إن الحج بما له من التعرفة الخاصة، التي لا توجد في غير العرفات[2]، موجب لرقي الإنسان إلى ذروة عالم الإمكان وسنامه، وهو الخُلق العظيم، وإجماله، إن ليوم العرفة

---

(١) مجمع البيان.
(٢) وسائل الشيعة ج ٨ ص ١١٣.

مقاماً، ولمكان العرفات مقاماً، ولكن نيل ذلك كله إنما يتيسر للحاج الذي يدركهما، مع ما لغيرهما من الأزمان والمواقف المعينة في الحج، ويستعد بذلك لدرك ما هو الحري بهما، وهو الدعاء، الذي هو مُخ العبادة وكهف الإجابة، كما أن اسحاب كهف المطر، وهو الدعاء الذي لا يكون ذريعة إلى قضاء حاجة من الحوائج النفسانية، بل يكون هو عين الإجابة ولا يطلب فيه إلا الله، ولا يطلب فيه إلا الغناء عن الحاجة لا قضاء حاجةٍ ولا يطلب فيه إلا النزاهة عن الطلب ولا يرجى فيه إلا كمال الانقطاع إليه تعالى، ولا يقصد فيه إلا خرق جميع حجب النور حتى يصير الروح معلقاً بعز العرش، ويصل إلى معدن العظمة فيصير هو بنفسه عظيماً. وبيانه: بأن الله تعالى قد بين قربه من عباده بمراتب ودرجات بعضها أقرب من بعض، حيث قال تعالى **﴿وإذا سألك عبادي عني فانّي قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾** (سورة البقَرة، آية ١٨٦) لأنه تعالى بادر بالجواب من دون أن يقول لرسوله ـ قُل ـ، ثم أفاد في الكريمة قربة من عباده. ولقد أجاد سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي (قدس سره) في تفسيره القيم ـ الميزان ـ بقوله:

أحسن بيان لما اشتمل عليه من المضمون، وأرق أسلوب وأجله، فقد وضع أساسه على التكلم وحده دون الغيبة ونحوها؛ وفيه دلالة على كمال العناية بالأمر. ثم قوله عبادي ولم يقل الناس وما أشببه يزيد في هذه العناية، ثم حذف الواسطة في الجواب، حيث قال: فانّي قريب، ولم يقل ـ فقُل ـ إنه قريب ـ؛

ثم التأكيد بان ثم الإتيان دون الفعل الدال على القرب، ليدل على ثبوت القرب ودوامه، ثم الدلالة على تجدد الإجابة واستمرارها، حيث أتى بالفعل المضارع الدال عليهما، ثم تقيده بالجواب، أعني قوله ـ أُجيب دعوة الداعِ ـ، بقوله ـ إذا دعانِ ـ وهذا القيد لا يزيد على قوله ـ دعوة الداعِ ـ المقيد به شيئاً، بل هو عينه، وفيه دلالة على أن دعوة الداعي مجابة من غير شرط وقيد، كقوله تعالى: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ (المؤمن، ٦٠).

فهذه سبع نكات في الآية تُنبىء بالاهتمام في أمر استجابة الدعاء والعناية بها، مع كون الآية قد كرر فيها على ايجازها ضمير المتكلم سبع مرات، وهي الآية الوحيدة في القرآن على هذا الوصف. انتهىٰ ـ الميزان ج ٢ ص ٢٩.

فهذه هي المرحلة الأولى التي يثبت فيها أصل قربه تعالى من عباده. والمرحلة الثانية ما يثبت فيها كونه تعالى أقرب إلى الإنسان من الذين يحومون حوله، حيث قال ﴿.. ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾ (الواقعة، ٨٥). والمرحلة الثالثة ما يثبت فيها كونه تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده، حيث قال تعالى: ﴿ونحنُ أقرب إليه من حبل الوريد﴾ سورة ق، ١٦).

والمرحلة الرابعة: ما يثبت فيها كونه تعالى أقرب إلى الإنسان من نفسه، حيث قال تعالى ﴿واعلموا أن الله يحولُ بين المرء وقلبه﴾ (سورة الأنفال، ٢٤)، وهو تعالى داخل في الأشياء، ومنها الإنسان، لا بالممازجة، وخارج عنها، لا بالمباينة

والمزايلة.

وللحاج أن يرتحل هذه المراحل إلى قصواها، فحسب ما ورثه من دعاء العرفات، المأثور من قتيل العبرات، سيد الشهداء في الكائنات، مولانا الحسين بن علي (ع)، حيث قال (ع) يومذاك: وهو تعالى للدعوات سامع، وللكُربات دافع، وللدرجات رافع، وللجبابرة قامع، فلا إله غيره، ولا شيء يعدله، وليس كمثله شيء.

وقال... لم تُخرجني، لرأفتك بي ولطفك لي واحسانك إلي، في دولة أئمة الكفر، الذين نقضوا عهدك، وكذبوا رُسُلك، لكنك أخرجتني للذي سبق لي من الهدى الذي يسرتني وفيه أنشأتني و... في ذلك إشارة إلى الحكومة الإسلامية كما تقدم، إلى أن قال (ع): إلهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك، كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بَعُدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً. إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فارجعني إليك بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار، حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السر عن النظر إليها، ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها، إنك على كل شيء قدير... إلخ.

وهذا هو دعاء من سقاه ربه شراباً طهوراً، فصار طاهر السر عن النظر إلى غير الساقي، ومصون الضمير عن حب الشراب وإن كان طهوراً، لأن قلبه صار مُتيماً بحب الساقي فلا موقع لحبّ غيره فيه. وهذا الدعاء هو الحريُّ بأن يكون مُخ جميع العبادات، إذ هو عبادة صرف، لا مجال فيها لظهور غير المعبود، ولا مطلوب فيها إلا المعبود، ولا مقصود فيها إلا معرفة المعبود بالمعبود، لا بغيره من آيات الآفاق أو الأنفس، فهناك يتحد الدليل والمدلول، لأنه تعالى دل على ذاته بذاته دون غير ما نهجه تعالى، لأن ما عدا ذلك إما استدلال عليه تعالى، بآيات الآفاق وفي ذلك ينحاز كل واحد من المستدل والدليل والمدلول ولكن ينحاز كل منهما عن المدلول. (ومعلوم أن الدليل إذا لم يكن عين المدلول) لا يمكن أن يدل عليه حق الدلالة، بحياله، وأما استدلال عليه تعالى بآيات الأنفس، وفي ذلك، وإن يتحد المستدل والدليل، ولكن ينحاز كل منهما عن المدلول ومعلوم ان الدليل اذا لم يكن عين المدلول لا يمكن أن يدل عليه حق الدلالة، بخلاف ما إذا كان عينه، كما في هذا الدعاء البالغ، حيث أنه تعالى استدل بالله على الله، وعرفه من ذاته الظاهر، وحكم بأنه لا ظهور لغيره تعالى حتى يكون هوالمظهر له.

ومثل هذا الدعاء السامي، تجدهُ في أدعية علي بن الحسين (ع)، في أسحار ليالي رمضان، من قوله (ع) .. بك عرفتك وأنت دللتني عليك. ومن قوله.. إن الراحل إليك قريب

المسافة، وإنك لا تحتجب عن خلقك، إلا أن تحجبهم الأعمال دونك. . . إلخ. كما تقف على مثله في دعاء الصباح، المأثور من علي بن أبي طالب (ع). . يا من دلّ على ذاته بذاته.

نتحصل أن الحج من حيث اشتماله على الأدعية الخاصة المحفوفة بالبركات الزمانية والمكانية وغيرها، ممثل للخلُق العظيم.

وخامسها: إن الحج بما له من التذكرة الخاصة، التي قلما توجد في غيره، موجب لشهود الحاج ما لا يشاهده غيره، وذلك أن الحج وإن كان بنفسه ذكراً لله تعالى، إلا أن المندوب إليه في حالاته هو الذكر الموجب لنسيان غير الله وعدم التباهي به، حيث قال تعالى: **﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً، فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق، ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب، واذكروا الله في أيام معدودات﴾** (سورة البقرة، ٢٠٠ ـ ٢٠٣)، حيث أن نطاق هذه الآيات هو طرد السنة الجاهلية[١]، بذكر الآباء والفخر بهم، وذكر القبائل والتباهي بها، والتكاثر بذلك، واثبات ذكر الله ذكراً شديداً، حيث أن الذين آمنوا أشد حباً لله، فذكرهم لله أيضاً أشد من ذكر هؤلاء آبائهم.

---

(١) وسائل الشيعة ج ١٠ ص ٢١٩ إلى ٢٢١.

والذي ينبغي التنبه له هو إن ذكر الله سارٍ في الحج وداخل في مناسكه لا بالممازجة، وخارج عنها لا بالمباينة، وهو لُبهما وروحها.

وكما أن نسيان الله ونسيان آياته يوجب العمى ها هنا، وسيظهر ذاك العمى يوم القيامة، حيث قال تعالى: ﴿... **كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى**﴾ (سورة طه/ ١٢٦)، إذ يدل على أن نسيان الله قد أورث العمى.

كذلك ذكر الله يوجب البصيرة ها هنا، فالحاج الذاكر لله تعالى يبصر ما لا يبصره غيره، ولعله لذا جُعل الحاج نفسه حرماً لا يجوز احلاله، وهو نفسه شعار من شعائر الله، وهو نفسه نور ما لم يقترف ذنباً.

فانظر بدء الحج وختمه واقض العجب، أما بدئه فقال تعالىٰ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تُحِلوا شعائر الله، ولا الشهر الحرام، ولا الهدي، ولا القلائد، ولا آمّين البيت الحرام، يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً..**﴾ (سورة المائدة، ١٢)، حيث أن الحاج الذي قد أمَّ البيت الحرام وقصده حرم لا يجوز احلاله. وأما ختمه، فعن مولانا جعفر بن محمد الصادق (ع) أنه قال: الحاج لا يزال عليه نور الحج ما لم يلم بذنبٍ[١].

نتحصل أن الحج نور وبصيرة، ولذا ورد أن تارك الحج

---

(١) وسائل الشيعة ج ١٠ ص ٢١٩ إلى ٢٢١.

يُحشر أعمى، وهو في الدنيا أعمى، وفي الآخرة أعمىٰ وأضل سبيلاً[1]. وحيث أن الحج نور وشهود فهو مُمثل للخُلق العظيم، ولا يتخلق الإنسان بخلُق عظيم إلا أن يصغر ما دون الخالق في نفسه، ممن تخلق بخُلق عظيم وصار هو بنفسه عظيماً، لا يتعاظم عنده شيء أصلاً، إذ هو مظهر للإسلام العظيم.

وأفضل من تخلق به، هو خاتم الأنبياء المنعوت بقوله تعالىٰ: ﴿إنك لعلىٰ خُلُقٍ عظيم﴾. وهو (ص) مظهر لأعظم الأسماء، إذ ليس المُراد من الاسم العظيم هو اللفظ الذي يتكلم به، ولا المفهوم الذهني الذي تتصوره النفس، بل هو مقام خارجي تناله النفس المتكاملة، وعين واقعية تتحقق بها النفس المُتعالية.

ولعل السر في كونه (ص)، مظهراً لأعظم الأسماء، هو كونه (ص) خير من حج ولبى، بجميع ما للحج والتلبية من الأسرار، وهو (ص) قال: إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها، ويكره سفسافها.

وحيث أن الثقة بالله ثمن كل غال وسُلم كل عال، وهو (ص) كان وثوقاً بربه مُتكلاً عليه، وقد يسره الله تعالى لليسرى، فلذا تخلق بذاك الخُلُق العظيم. لأنه (ص) كان واجداً لما يشتري به ذاك الغالي، ولما يتدرج به إلى ذلك العالي.

---

(١) وسائل الشيعة ج ٨ ص ١٧ و ١٨.

وكان حجّه (ص) موازياً لمعراجه، حيث قال مولانا الصادق (ع)، في بيان علة احرام رسول الله (ص) من مسجد الشجرة: إنه لما أُسري به إلى السماء وصار بحذاء الشجرة، نودي يا محمد، قال (ص): لبيك[1].

والحاصل أن الحج بما له من السنن والأسرار الجامعة، يكون من أهم مظاهر الإسلام، وكفى بجامعيته ما رواه زرارة عن مولانا الصادق (ع)، حيث قال: جعلني الله فداك أسألك في الحج منذ أربعين عاماً فتفتيني! فقال: يا زرارة بيت حُج إليه قبل آدم بألفي عام، تريد أن تفني مسائله في أربعين عاماً[2].

وكذا ما قاله مولانا الباقر (ع): إنه أتى آدم هذا البيت ألف آتية على قدميه، منها سعبمائة حجة وثلاثمائة عمرة[3].

وما ورد أن صاحب هذا الأمر يحضر الموسم كل سنة، فيرى الناس ويعرفهم ويرونه ولا يعرفونه[4]. وما ورد عن مولانا علي بن موسى الرضا (ع)، أنه قال: إنما أُمر الناس بالحج، لعلة الوفادة إلى الله عزّ وجل، وطلب الزيادة، والخروج من كل ما اقترف العبد، تائباً مما مضى مستأنفاً لما يُستقبل... إلى أن قال (ع): وقضاء حوائج أهل الأطراف في المواضع الممكن لهم

---

(١) وسائل الشيعة ج ٨ ص ٢٢٤ و ٢٢٥.
(٢) وسائل الشيعة ج ٨ ص ٧.
(٣) وسائل الشيعة ج ٨ ص ٩٤.
(٤) وسائل الشيعة ج ٨ ص ٩٦.

الاجتماع فيه، مع ما فيه من التفقه ونقل أخبار الأئمة (ع) إلى كل صُقع وناحية، كما قال تعالى: **﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدنيا ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون، وليشهدوا منافع لهم﴾**(١).

وما ورد عن مولانا الصادق (ع)، في علة لزوم الحج على العباد... فجعل فيه الاجتماع من الشرق والغرب ليتعارفوا و... لتعرف آثار رسول الله (ص)، وتعرف أخباره، ويُذكر لا يُنسى(٢).

وما ورد عنه (ع)، بعد ما قيل له أن ناساً من هؤلاء القُصاص يقولون، إذا حجّ الرجل حجّة ثم تصدق ووصل كان خيراً له، فقال: كذبوا، لو فعل هذا الناس لعُطل هذا البيت، إن الله عز وجل جعل هذا البيت قياماً للناس(٣) وقال (ع): جعلها الله لدينهم ومعائشهم(٤). والأصل في ذلك هو قوام الدين وقيامه، ولا جدوى لحج لا قيام فيه للدين، ولذا قال رسول الله (ص): يأتي على الناس زمان يكون فيه حج الملوك نزهةً، وحج الأغنياء تجارةً، وحج المساكين مسألةً(٥).

وما ورد في الحج، من تبين الحق وسعة الرحمة،

---

(١) وسائل الشيعة ج ٨ ص ٨ و ص ١٩.
(٢) وسائل الشيعة ج ٨ ص ٨ و ص ٩.
(٣) وسائل الشيعة ج ٨ ص ١٤.
(٤) وسائل الشيعة ج ٨ ص ٤١.
(٥) وسائل الشيعة ج ٨ ص ٤١.

ما لا يتبين في غيره، وما لا يتسع فيما عداه، حيث قال تعالى: ﴿فيه آيات بينات﴾ (سورة آل عمران، آية ٩٧)، إذ كل ما سوى الله آية له، إلا أن أسرار الحج آيات بينات له، وهناك يشاهد الضيف مضيفه، والمضيف يُري نفسه أضيافه، بحيث تكون آياته هناك بينات.

وأما في سعة الرحمة فقد ورد عن مولانا أبي جعفر (ع) أنه قال، في رجل خرج حاجاً حجة الإسلام فمات في الطريق، إن مات في الحرم فقد أجزأت عنه حجة الإسلام[١]. فانظر سعة الرحمة وأدب الضيافة.

وقال رسول الله (ص)، في حجة الوداع لما وقف بعرفة وهمت الشمس أن تغيب: يا بلال قل للناس فلينصتوا، فلما انصتوا، قال: إن ربكم تطول عليكم في هذا اليوم، وغفر لمحسنكم، وشفع محسنكم في مسيئكم، فأفيضوا مغفوراً لكم[٢].

ولعله لهذه المزايا الخاصة للحج، قال مولانا الصادق (ع) لعيسى بن أبي منصور: يا عيسى إني أحب أن يراك الله فيما بين الحج إلى الحج وأنت تتهيأ للحج[٣]، وقال (ع): ليحذر أحدكم أن يُعوق أخاه عن الحج، فتصيبه في دنياه مع ما يدخر له في

---

(١) وسائل الشيعة ج ٨ ص ٤٧.
(٢) وسائل الشيعة ج ٨ ص ٦٥.
(٣) وسائل الشيعة ج ٨ ص ١٠٦.

الآخرة[1] . إذ ليس لأحدٍ أن ينأى عن خير كالحج، وينهى عنه، بل يلزم أن يرغب بنفسه فيه ويُرغب غيره فيه. ولنكتف في فضله بنقل ما قاله رسول الله (ص)، لمن قال له، يا رسول الله إني خرجت أريد الحج ففاتني وأنا رجل يُميل (أي كثير المال)، فمرني أن أصنع في مالي ما أبلغ به مثل أجر الحاج؛ فالتفت إليه رسول الله (ص) فقال: انظر إلى أبي قبيس، فلو أن أبا قبيس لك ذهبه حمراء أنفقته في سبيل الله ما بلغت به ما يبلغ الحاج، ثم قال: إن الحاج إذا أخذ في جهازه، لم يرفع شيئاً ولم يضعه إلا كتب الله له عشر حسنات، ومحى عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، فإذا ركب بعيره لم يرفع خفاً ولم يضعه إلا كتب الله له مثل ذلك، فإذا طاف بالبيت خرج من ذنوبه، فإذا سعى بين الصفا والمروة خرج من ذنوبه، فإذا وقف بعرفات خرج من ذنوبه، فإذا وقف بالمشعر الحرام خرج من ذنوبه، فإذا رمى الجمار خرج من ذنوبه. . . فعدّ رسول الله كذا وكذا موقفاً، إذا وقفها الحاج خرج من ذنوبه، ثم قال: «أنى لك أن تبلغ ما يبلغ الحاج» قال أبو عبدالله (ع) ولا يكتب عليه الذنوب أربعة أشهر، ويكتب له الحسنات إلا أن يأتي بكبيرة[2] . ولعل المراد من مثل قوله (ص)، فإذا طاف خرج من ذنوبه، فإذا سعى خرج من ذنوبه، هو بيان اختلاف تلك الأعمال في مغفرة الذنوب الخاصة حيث أن

---

(١) وسائل الشيعة ج ٨ ص ١٠٦ .

(٢) وسائل الشيعة ج ٨ ص ٧٩ .

كل واحد منها موجب لغفران ذنب خاص. أو أن الذنوب لما تراكمت وصارت زيْناً على صاحبها، وحجاباً على من اقترفها، يكون كل واحد من تلك المناسك موجباً لترقيق قشر من تلك الحُجب، ورفع غطاء من تلك الأغطية، وتسطيح كنان من تلك الأكنة في القلوب، حتى يأتي الحاج ربه بقلبٍ سليمٍ، لا كنان فيه، ولا صدأ عليه، ولا حجاب، رزقنا الله وإياكم.

خاتمة

في وداع الكعبة وفي بعض مآثر حجة الوداع.

كما أن الله تعالى هو الأول الذي لا أول له، والآخر الذي لا آخر له، لأن أوليته بذاته، وكذا آخريته، حيث قال تعالى **﴿هو الأول والآخر﴾** (سورة الحديد، آية ٣) وكذلك يكون تعالى، مبدء صدور الأشياء ومرجع عودها، **﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾**. كذلك يلزم أن يكون ابتداء كل أمر بالتوجه إليه تعالى، وختام كل أمر جميل بالثناء عليه تعالى، حتى لا يفتتح بأمر بدون لاعتصام به والإتكال عليه والتوجه إليه، ولا يختتم بدون حمده وشكره، لأن الموحد كما يعرف الله تعالى بأنه الأول والآخر، ويعرف أن بدء جميع الموجدات منه تعالى وختمها إليه تعالى، كذلك لا يدخل في أمر ولا يخرج منه إلا بالتوجه إليه تعالى. كما أدب الله نبيه (ص) حيث قال تعالى: **﴿قل ربِّ ادخلني مدخل صدقٍ، وأخرجني مخرج صدقٍ واجعل لي من لدُنك سلطاناً نصيراً﴾** (سورة الاسراء، آية ٨٠).

ومقتضى توحده، أن يكون محياهُ ومماته لله رب العالمين،

فلا يدخل في الدنيا ولا يخرج منها إلا صادقاً ولا يدخل في البرزخ ولا يخرج منه إلا صادقاً، ولا يدخل في المعاد الذي لا خروج منه، ولا يبقى ولا يدوم فيه إلا صادقاً، لأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم قدم صدقٍ عند ربهم، ولهم لسان صدقٍ، وكذا يكونون في «مقعد صدق عند مليكٍ مقتدرٍ».

ومن أهم تلك الشؤون هو الحج، فله بدء يبتدء منه الحاج صادقاً، وله ختم يختتم إليه الحاج صادقاً. فلذا ودع مولانا علي بن موسى الرضا (ع) البيت الحرام، بأن خرسا جداً، ثم قام، فاستقبل الكعبة، فقال: «اللهم إني أنقلبُ على لا إله إلاّ أنت»[١]. يعني على التوحيد المحض وطرد أي شرك كان. وهذا هو الحاج الذي لا يزال عليه نور الحج، ـ الوافي باب فضل الحج ـ.

ومن أدب الوداع أن يدعو، كما عن مولانا الصادق (ع): اللهم اقلبني مُفلحاً منجحاً مُستجاباً لي، بأفضل ما يرجع به أحد من وفدك، من المغفرة والبركة والرضوان والعافية مما يسعني أن أطلب. . .[٢] إلخ. وأن يكون أخر عهده بالبيت أن يضع يده على الباب ويقول: المسكين على بابك فتصدق عليه بالجنة[٣].

وليكن أخر عهدنا في هذه الوجيزة، الباحثة عن نظام الحج

---

(١) وسائل الشيعة ج ١٠ ص ٢٣٢.
(٢) وسائل الشيعة ج ١٠ ص ٢٣١.
(٣) المصدر السابق ص ٢٣٣.

ونبذٍ من أسراره، هو ما يتصدق الله علينا بجنة الحكمة، وهي خطبة خاتم النبيين (ص)، الذي أوتي جوامع الكلم، والذي ما كلم العباد بكُنه عقله قط، حيث لم يكن من يعادله حتى يكلمه بكُنه عقله إلا من هو نفسه، ﴿وأنفسنا وأنفسكم﴾ (آل عمران)، وكيف لا يكون كلامه (ص) الجنة بعد ما قال (ص) «أنا مدينة الحكمة وهي الجنة وأنت يا علي بابها».

وكما أنه (ص): قد صلى، وقال (ص): صلوا كما رأيتموني أصلي، وحج وقال (ص) خذوا عني مناسككم، كذلك أدب الناس وعلمهم نظام الحج وأسراره في خطبته المباركة في حجة الوداع. ولنشر إلى نزرٍ من شذراتها فيما يلي، فقط الجامع لما تقدم في الصلاة المارة والجهات الماضية:

أحدها: تهذيب النفس بالتوحيد الخالص، وتزكيتها بتولي أولياء الله، وتطهيرها عن النفاق والخلاف، حيث قال (ص)، حثاً على الوعي، نصر[1] الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وبلغها من لم يبلغها؛ رُبّ حامل فقه ليس بفقيه، ورُبّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه؛ ثلاث لا يغل عليهن قلبُ أمرءٍ مسلم: اخلاص العمل لله والنصيحة لأئمة المسلمين، واللزوم لجماعاتهم...

فالحاج يعبد الله مخلصاً له الدين، وينصح لأئمته، ويلازم المجتمع الإسلامي، كما قال علي (ع): وليس رجل أحرص على

---

(١) وفي نسخة نضر الله عبداً ـ أي جعل وجهه من الوجوه الناضرة يوم القيامة.

جماعة أمة محمد (ص) وألفتها مني، ابتغي بذلك حسن الثواب وكرم المآب[1].

وثانيها: تأمين الناس على الدماء والأموال، حيث قال (ص).. «إن الله حرم عليكم دمائكم وأموالكم... ولا تعثوا في الأرض مفسدين فمن كانت عنده أمانة فليؤديها... فالحاج أمين لأعراض الناس وأسرارهم، لأن قلوب الأحرار خزائن الأسرار.

وثالثها: تسوية الناس بآحادهم وقبائلهم، حيث قال (ص): الناس في الإسلا سواء... لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بتقوى الله... فالحاج يستوي ويُساوي.. ولا يرى لنفسه فضلاً على غيره، ولا لقومه تقدماً على قوم آخر، ويرى الآحاد والشعوب سواسية.

ورابعها: تطهير المجتمع الإسلامي عن السنن الجاهلية الجهلاء في الأموال والدماء والبغضاء والشحناء.. حيث قال (ص): كل دمٍ كان في الجاهلية موضوع تحت قدمي... وكل رباً كان في الجاهلية، موضوع تحت قدمي. وأول رباً أضعه ربا العباس بن عبد المطلب... فالحاج لا يجر منه شنآن قوم أن يعتدي، ولا يجره حب الدنيا إلى أن يأذن بحرب من الله. ويقول، إنما البيع مثل الربا، لأنه يعلم إن الله تعالى يمحق الربا ويُربي

---

(١) نهج البلاغة كتاب ٧٨.

الصدقات.

وخامسها: تكريم النساء كالرجال، وتعديل الحقوق التي لهن عليهم ولهم عليهن حيث قال (ص): . . . أوصيكم بالنساء خيراً. . ولكم عليهن حق ولهن عليكم حق، وكسوتهن ورزقهن بالمعروف. فالحاج يرى قوله تعالى. . . جعل بينكم مودة ورحمة، ويشاهد قوله تعالى: **﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾**، ويراعي قوله تعالى: **﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾** (سورة البقرة، ٢٢٨).

وسادسها: تجيب العمال وتفقد الخدمة، حيث قال (ص). . أوصيكم بمن ملكت ايمانهم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون. . . فالحاج يتحبب إلى من يخدمه ولا يستعلي عليه، بل يجتمع معه على مائدة، ويلبسه ما يتلبس به، ولا يتزىء ولا يتفوه بقوله، أنا أحسن منك أثاثاً ورئياً.

وسابعها: تنسيق المجتمع الإسلامي على نسق العدل والأمانة، حيث قال (ص). . . إن المسلم أخ المسلم لا يغشه ولا يخونه ولا يغتابه ولا يحل له دمه ولا شيء من ما له إلا بطيب نفسه. . فالحاج مع أي مسلم آخر أخ له في الدين، أبوه النور وأمه الرحمة، وهو طيب لا يحن إلا نحو الطيب.

وثامنها: تكليف المجتمع الإسلامي برسالة التبليغ والاهتمام بالمسؤولية، حيث قال (ص): إنكم مسؤولون، فليبلغ الشاهد

منكم الغائب.. فالحاج فقيه يحمل الفقه إلى أي مسلم آخر لم يوفق الحضور في المواقف ولم يدرك الحرمين ومجامعهما.

وتاسعها: تعليم الناس بأهم فرائض الإسلام، وهو الاعتصام بالثقلين، اللذين تركهما رسول الله (ص) في أمته حيث قال (ص).. إني خلفتُ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي.. فالحاج يعتصم بحبل الله، ومن اعتصم بالله فقد هُدي إلى صراطٍ مستقيم.

وعاشرها: تولية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وجعله ولياً للمسلمين حيث قال (ص).. من كنتُ مولاه فهذا علي فمولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه، وبذلك يكمل الدين ويتم النعمة.

إلى هنا انتهى ما جرى اليراع، ولقد أوتيت جوامع هذه الكلم في سفر الحج ولم يتيسر لي تنسيقها مرة بعد أخرى، بل كنت أكتب لكل ما نفث في الروع، سفراً كان أو حضراً، حرماً كان أو حلاً، فإن وفى بشيء من أسرار الحج فلله المنة وإلا فليعذرني الكرام، ولكنه جرعة من ماء زمزم الذي كان رسول الله (ص) يستهديه وهو (ص) بالمدينة ولعله يصير شراباً طهوراً لمن أتى الله ولباه بقلبٍ سليم. دعواهم فيها سبحانك اللهم، وتحيتهم فيها سلام. وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

الفهرس

خاتمة